المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الأول - ١٤٠٠ - ١٩٨٠

1

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء الكتب المحمدة

الشعوبية في شعر أبي نواس

بقلم الدكتور

حسني محمود حسين

جامعة اليرموك ـ اربد ـ الاردن

ينظر اسم « الشعوبية » الى « شعب » بمعنى القبيلة العظيمة . وينقل الاستاذ احمد امين في ضحى الاسلام ان بعض الاعاجم فسروا ـ الشعوب ـ في الآية الكريمة « وجعلناكم شعوبا وقبائل » بانها تعني العجم ، والقبائل تعني العرب، ويؤكد ذلك في المجلد الرابع من دائرة المعارف الاسلامية(١) : فيذكر ما معناه ان « الشعوب يقصد بها في العربية القبائل من غير العرب (العجم) لتتميز من « القبائل » بمعنى القبائل العربية » ، ويضيف بان الشعوبية كانت فرقة اما عارضت فخر العرب عليهم او رفعت غير العرب فوق العرب ، او انها ـ على العموم ـ احتقرت او صغرت شان العرب والفرد في هذه الفرقة يسمى شعوبيا . وهكذا فقد كانت محاولات ناجحة كثيرا او قليلا من جانب الاجناس المختلفة المعارضة لتتمسك بما لديها وتميز على الاقل بين العروبة والاسلام ، وحتى لقد عنى هذا في فارس استعادة الفارسية لغة ادبية ، وحد استعمال العربية في العلوم الدينية ، ولذا فالحركة ذات صلة خاصة بالقومية في نطاق اسلام هذا اليوم » .

وفي تاريخ نشأة هذه الحركة وما حولها يحدثنا المرحوم احمد امين(٢) ، فيذكر لنا النزعات الثلاث التي سادت في العصر العباسي الاول : فواحدة ترى العرب خير الامم ، وثانية ترى جميع الامم سواسية (اهل التسوية) ، وثالثة تحط من شان العرب وتفضل غيرهم من الامم عليهم ، اذ لا ترى لهم ميزة على سواهم . ويمثل لنا هذه النزعة الاخيرة من غلوا على دينهم الاول او من غلبت النزعة الوطنية فيهم على نزعة الايمان لضعفها لديهم ، فكرهوا من العرب ازالتهم ملكهم واضاعتهم استقلالهم . وقد اطلق اسم « الشعوبية » اولا على اصحاب النزعة الثانية الذين يسميهم في « العقد الفريد » اصحاب التسوية ، ويقول في « الصحاح » ، « الشعوبية فرقة لا تفضل العرب على العجم » وبمثله في هذا صاحب اللسان (ج١ : ٤٨٢) ، ثم انسحب هذا الاسم على اصحاب النزعة الثالثة كما يظهر ذلك لدى الجاحظ وابن عبدربه وغيرهما ، يقول في اللسان « والشعوبي الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلا على غيرهم »(٣) . والظاهر ان تسميتهم به تاخرت عن تسمية اهل التسوية به لتاخر ظهور فرقتهم عن الثانية تاريخيا ، تمشيا مع طبائع الامور .

ويرى الاستاذ احمد امين ان اسم الشعوبية لم يستعمل الا في العصر العباسي الاول ، وان الشعوبية نزعة اكثر منها عقيدة ، فليس لها تعاليم

---

(١) مجلد ٤ : ٢٩٥ .

(٢) انظر ضحى الاسلام ج ١ (ط ٨ ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٧٢) : ٤٩ وما بعدها .

(٣) اللسان ج ١ : ٤٨٢ .

محددة(٤) . والواقع ان هذه النزعة سادت في هذا العصر وسايرتها او داخلتها نزعة اخرى هي نزعة « الزندقة » نتيجة لها ؛ فينقل لنا احمد امين(٥) عن الجاحظ في « الحيوان » قوله « وربما كانت العداوة من جهة العصبية ؛ فان عامة من ارتاب بالاسلام انما جاءه ذلك من الشعوبية ، فاذا ابغض شيئا ابغض اهله ؛ وان ابغض تلك اللغة ابغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام ؛ اذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف » . وقد دعت هذه النزعة قوما الى ان يتبرأوا من الشعوبية اذ هي باب الى الالحاد .

واستقطب هاتان النزعتان الكثيرين من الحاقدين على العرب وعلى الاسلام ، حتى اضطر المهدي الى انشاء ديوان خاص لمقاومة الزنادقة ؛ نشط في ملاحقتهم واشتط في احكامه حتى كان بعض الناس يؤخذون على الظن .

وينقل احمد امين عن كتاب العرب من رسائل البلغاء لابن قتيبة ان معتنقي الشعوبية هم سفلة الناس وغوغاؤهم ؛ يقول : « ولم ار في هذه الشعوبية ارسخ عداوة ولا اشد نصبا للعرب من السفلة والحشوة ، واوباش النبط ؛ وابناء اكرة الفرس ، فاما اشراف العجم وذوو الاخطار منهم واهل الديانة فيعرفون مالهم وما عليهم ويرون الشرف نسبا ثابتا(٦) » . وربما كان في حكمه هذا مقتصرا على المتظاهرين بالشعوبية ؛ اذ ان تخوف الاشراف من اظهارها جعلها لديهم سرية خفية ؛ فهو يذكر ايضا ان ممن ذهب مذهب الشعوبية « قوما تحلوا بحلية الادب ، فجالسوا الاشراف ، وقوما اتسموا بميسم الكتابة فقربوا من السلطان فدخلتهم الانفة لادابهم والفضاضة لاقدارهم من لؤم مغارسهم وخبث عناصرهم ؛ فمنهم من الحق نفسه باشراف العجم واعتزى الى ملوكهم واساورتهم ودخل في باب فسيح لاحجاب عليه ، وسبب واسع لا مدافع عنه . ومنهم من اقام على خساسته نافح عن لؤمه ويدعي الشرف للعجم كلها ليكون من ذوي الشرف ويظهر بغض العرب بتنقصها ؛ ويستفرغ مجهوده في مثالبها واظهار مثالبها وتحريف الكلم في مناقبها وبالسنتها نطق .. وباديها تسلح عليها ، فان هو عرف خيرا ستره ؛ وان ظهر حقره ؛ وان احتمل التاويلات صرفه الى اقبحها ؛ وان سمع سوءا نشره .. وان لم يجد تخرصه » .

واضح اذن ان كثيرين من افراد الطبقة المتعلمة الراقية كانوا ياخذون بزمام هذه الحركة ؛ وهم الذين كان لهم الاثر الشعوبي في العلم والادب ، فبشار بن برد وصالح بن عبدالقدوس وغيرهما كثيرون اخذوا بزندقتهم وشعوبيتهم ودقت اعناقهم .

وشاعرنا ابو نواس عاش في هذا العصر ، فعايش الكثيرين ممن عرفوا بشعوبيتهم ، ودرس وسمع عن كثيرين غيرهم . كان في قلب هذا التيار الجارف فخرج ببلله بغض رذاذه ، ومن هنا وسمه بعض الدارسين بهذا الميسم ، والصقوا به هذه التهمة ؛ ونفاها اخرون عنه . وفي هذا البحث حول هذه الدراسة ارجو ان اوفق الى الصواب بقدر نيتي فيه ؛ واملي في الوصول اليه .

وارى من المفيد ان اذكر هنا منهجي في البحث ؛ فاذكر ـ احقاقا للحق والعدل ـ مظاهر التهمة وآثار الميسم الذي خلفه ذلك الرذاذ المختلط بالخمر على شاعرنا ؛ فاخذ من خلفه ومن بين يديه وسبق الى « ديوان الشعوبية » .

واولى هذه المظاهر والادلة تهجمه على بادية الاعراب ونعيه على شعراء العرب ذكر ديارها واطلالها في مقدمات قصائدهم ؛ ثم اخذه بكراهة العرب وهجائه لبعض الاعراب وقبائلهم ، وذكره بعض مفاخر الفرس ومديحهم في اشعاره .

وخلال هذا وذاك سأسوق بعض ما يمكن ان يدافع به عن نفسه مما يمكن ان يكون تعليلات وتأويلات بين الادعاء والدفاع .

وارى اولا ان نتعرف في لمحة خاطفة على هذا الانسان الشاعر في نسبه وبيئته وشخصيته لنلقي منها اضواء كاشفة على حياته ؛ نتعرف منها على ظروف تهمته بالجرم واتهامه المنكر .

---

(٤) ضحى الاسلام ج ١ : ٥٧ .
(٥) م . ن : ٦٠ .
(٦) م . ن : ٦٢ .

مقدمـــــة :

ابو نواس الانسـان

ومفتاح شخصيته

« لم يكن ابو نواس بدعة من البدع ، ولكن كانها كتب القدر عليه ان يكون ضربة المجون في عصر بعد بدعة في العصور»

غمض نسب الحسن بن هاني على كثيرين من الدارسين حين رأوه ينتسب لآل الحكم من بني سعد العشيرة اليمنيين . ويتكنى بكنيته . والصحيح ان اباه كان مولى فارسيا لآل الحكم بن الجراح من بني سعد العشيرة(٧) . ومعروف ان امه ـ جلبان ـ فارسية . وهكذا فهو فارسي الاب والام .

ويرجح المرحوم الاستاذ عباس محمـــود العقاد(٨) ان اباه من سلالة زنجية تنتمي الى مولى من اليمن ؛ وكان اسود شديد السواد . قال فيه ابان اللاحقي :

هـــانىء الجـون ابوه
زاده اللـــه هـــوانـــا

واصدق ما يصور حيرته في نسبه غير العربي ما قاله الرقاشي فيه عن حق :

واضع نسبته حيث انتهى
فاذا ما رابـه ريب رحـــل

فهو كما يذكر في اخباره كان يتنقل بنسبه حيث يحلو له في القبائل ، واذا عز عليه النسب ثاب الى نفسه يعتز بها ، يقول للخصيب وقد سأله عن نسبه :

« اني امرؤ رفعني ادبي » .

وينقل الاستاذ عبدالحليم عباس(٩) قوله :

ولو لم ارث فخـرا لكانت صيـانتي
فمي عن سؤال الناس حسبي من الفخر

وخسة نسبه هي العقدة الوحيدة التي لم يستطع ابو نواس ان يبوح بها مع ما باح من رذائله،

(٧) طبقات الشعراء لابن المعتز ـ تحقيق عبدالستار احمد فراج (ط ٢ ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٨) : ١٩٤ .
(٨) ابو نواس ، الحسن بن هانىء ـ دراسة في التحليل والنقد التاريخي (طبعة دار الهلال ـ سلسلة كتاب الهلال) : ١٠٠ .
(٩) ابو نواس (ط ٢ ـ دار المعارف بمصر ـ سلسلة الذخا رقم ٢١) : ٢٤ .

فهو غير مستطيع ذلك في عصر الانساب والاحساب، فراح ينفس عنها مدفوعا الى ادمان الخمر حيث يتساوى بحثية القوم وكبرائهم ؛ ويرى العقاد(١٠) ان هذه العقدة غلبته لانها جاءته من قبل طبيعته الفرجسية التي تزين لصاحبها عادات العـــرض والظهور ؛ وهذه العقدة النفسية ليست مما يتقبل العرض والظهور لانها مهينة لصاحبها ؛ مذلة له بين قومه . وقد لاقى ابو نواس ارهاقا وعنتـــا شديدين من قبل تعييره بامه التي كانت تجمع في بيتها بين الغواني وطلابهن لريبة ؛ ثم بسبب غرامها بمن يسمى ـ العباس ـ الذي تزوجها فيما بعد لينقطع ما بينها وبين ابي نواس حتى موته .

وكانت امه قد انتقلت به بعد يتمه المبكر الى البصرة فرضة العالم في ذلك الزمان ، ففتح عينيه على الدنيا العريضة فيها ، ونبت بين اباحية الشطار والشذاذ من جميع الآفاق . وكان الفلام فيما يذكر من اخباره وسيما : قال ابن منظور عن سيرته مع والبة بن الحباب « فراى بدنا حسنا ، وكان جميل الوجه وحسن البدن فاطار عقله » ؛ فيه سعار ذي اللذة زاده هوسا فيه انصاله في الكوفة باهل المجون والخلاعة امثال والبه بن الحباب ومطيع بن اياس وحماد عجرد فتخرج على ايديهم فاســـدا منحط الخلق يتقي من حـــن السمعة ما يتقيـــه السوي من مذمتها .

الى هذا الحد بلغت به الاباحية في البيئـــة الفاسدة التي رضعه قذره فيها : كان عصره بدعة في العصور : عصر لهو وخلاعة وخاصة لدى ذلك القطاع من المجتمع ، قطاع المغنين والشـــعراء والمثرين ؛ فكان ابو نواس الشاعر الفنان يهرب الى حلقاتهم يشبع فيها سعاره بلا تعفف ولا حشمة :

فشـربنـا شـــرب قـــوم
عطشـــوا من عهد عاد(١١)

ولم تبخل عليه بغداد ايضا بلذة تشتهيهـــا نفسه او يصورها خياله ؛ فعاش ما عاش طالب لذة يغذي بها نسيانه لعقدة النسب التي تؤرقه :

ســـقيا لبغـداد وايامهـــا
اذ دهرنا نطويه بالقصف(١٢)

(١٠) ابو نواس ـ الحسن بن هانىء : ١٢٤ .
(١١) ديوانه ـ تحقيق احمد عبدالمجيد الغزالي ، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٥٣ : ٦٤ .
(١٢) الديوان : ٦٩١ .

وكان لا يستطيب لذاذاته الا مجاهرة وبافتضاح ، يقول :

اطيب اللذات ما كا
ن جهراً بافتضاح[١٢]

وسوء السمعة لديه جاء يحتفظ به ، يقول لابي العتاهية وقد نصحه بالتوبة :

اتراني يا عتاهي
تاركا تلك الملاهي
اتراني مفسداً بالنـ
ـك بين المرد جاهي[١٤]

وبلغ من تهالكه على الآثام وترديه في حمأة الفسق والفجور ان اصبح يعتبر اعترافه بنقائصه مفاخر يباهي بها المحرومين منها ، وتلك خديعة الطبع الضعيف ، والا فما معنى مفاخرته بهذه الهمة الوضيعة :

انما همتي غزا
ل ، وصهباء كالذهب
انما العيش يا اخي
حب خشف من العرب
فاذا ما جمعته
فهو الدين والحسب[١٥]

فهل انحطت الدنيا واحسابها ، وهان الدين الى هذا الحد ؟ ! الا ان يكون ذلك في نفس ضعيفة وطبع اضعف لا يقوى على مبارحة الحانات حيث لذاذات عيشه :

ترك الصبوح علامة الادبار
فاجعل قرارك منزل الخمار[١٦]
ما لذة العيش الا شرب صافية
في بيت خمارة او ظل بستان[١٧]

وفي مستهتره هذا وهو سكران يقول معظم اشعاره[١٨] ، وما هي اشعاره ، ومعظم ديوانه يذهب بين الخمر والغزل ، اذ امضى عمره سادراً لا يرعوي ، ومخموراً لا يفيق ، مما حدا بالمأمون واصحابه ان يستفتوا منادمته للامين الخليفة في الفتنة بين الاخوين . فيذكرون اهل العراق بانهم « اهل فسق وفجور وخمور وماخور »[١٩] ؛ ويعيبون على الامين منادمته لابي نواس .

وآفة ابي نواس كما يراها العقاد انما هي آفة الضعف والشعور والمغلوب ، وليست آفة الشر والاذى ، فقد وقع من مولده كما يقول في بيئة تعالج التسامي باتخاذ الفضيلة من الضرورة وطلب الوجاهة من وراء الشهرة المخالفة او تحدي الرياء بالاجتراء عليه[٢٠] ، وشذوذه في غلامياته المتهتكة يجد الدليل على هذا الضعف وتلك الشهرة المخالفة .

ويفسر آفات ابي نواس جميعا كما يرى المرحوم العقاد ظاهرة نفسية هي ظاهرة «النرجسية» اي غرام الذات ، وهي شذوذ دقيق يؤدي الى ضروب شتى من الشذوذ في غرائز الجنس وبواعث الاخلاق[٢١] ، واهم شعبها شعبتان[٢٢] : الاشتهاء الذاتي Auto-erotism والتوثين الذاتي Auto-Fetishism . وهو في هذا الشذوذ ذو طبيعة جنسية تشتبه بكلا الجنسين وتتشكل بهذا الشكل مرة ، وبذلك اخرى ، على حسب غوايات الطبيعة النرجسية .

هذه الظاهرة لدى العقاد هي مفتاح شخصية ابي نواس الشاذة ، وهي ليست بشخصية رجل فكر او مذهب ، انما صاحبها شاعر عبث ولهو تتحكم به الاعصاب التي يخدرها الحديث العابث في الخمر واللهو وما يتبعهما من مجانة وخلاعة .

وبعد هذه الجولة الطائرة في التعرف على شاعرنا في حياته ونفسيته وشخصيته ، يمكن ان نعرض ادلة الاتهام وامامها ادلة الدفاع لنرى صحة ما لصق به على الدهر من هذه التهمة ، ولنبدأ اولا بمظهر الاتهام الاول ، وهو تشنيعه على الشعراء الشرب بدءهم بمقدماتهم الطللية ، ونعيه عليهم بكاء الديار والرسوم .

---

(١٢) م . ن : ٦٨٥ .
(١٤) عن كتاب ابي نواس ـ الحسن بن هانيء ... للعقاد : ٢٤ . انظر الديوان :
(١٥) الديوان : ٧١٤ .
(١٦) ، (١٧) الديوان : ٦٨٤ ، ٦٧٧ .
(١٨) ابن المعتز ـ طبقات الشعراء : ٨٧ .
(١٩) عبدالرحمن صدقي ـ ابو نواس : ١٦١ .
(٢٠) العقاد : ابو نواس ـ الحسن بن هانيء ... : ١٩٨ .
(٢١) م . ن : ٣٥ .
(٢٢) م . ن : ٣٩ .

١ ــ ماذا في المقدمات الطللية ؟

« اذا كان مدح فالنسيب المقدم
اكل فصيح قال شعرا متيم »
المتنبي

يقول ابن رشيق في مذاهب الشعراء في الافتتاح : « للشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب ، لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما في الطبع من حب الغزل والميل الى اللهو والنساء ، وان ذلك استدراج الى ما بعده(٢٣) . وهو يقول باختلاف مقاصد الناس ، فطريق اهل البادية تختلف عن طريق اهل الحاضرة : اولاهما ذكر الرحيل وتوقع البين والاشفاق منه ، وصفه الطلول والحمول ... والثانية ياتي بها غزلهم في ذكر الصدود والهجران والواشين وذكر الشراب والندامى ودرس الكتب ... ومنهم من سلك في ذلك مسلك لشعراء اقتداء بهم واتباعا لما الفته طباع الناس معهم ، فلا معنى لذكر الحضري الديار اذن الا مجازاً ورمزا .

ويرى الدكتور عزالدين اسماعيل في تفسيره لهذه المقدمة في الطلل والنسيب « انها الجزء الذاتي من القصيدة ، وانها ليست موجهة الى قلوب المتلقين واسماعهم ، فهي تعبير عن موقف الشاعر الجاهلي من الحياة والكون من حوله ، هذه الحياة المنطوية على عناصر نفسية احسها احساسا مبهما ، عناصر التناقض واللاتناهي والفناء ، فلم يشعر ازاء حياته باي اطمئنان ، اذ لا نظرية تفسر له هذه العناصر قبل الاسلام . وهذا القلق كان موقفا انسانيا عاما بدا في قطعة النسيب هذه التي تمثل الاحساس الخفي بالعلاقة بين الموت والفناء من نحو ــ وتذكر الاطلال بهما ــ ، وبين الحياة من نحو آخر يذكر بها هذا النسيب وهذا الحب .

فهذه القطعة دليل تناقض ماثل لديه في العالم الخارجي وفي عالمه الباطني يعبر عن ازمة الانسان في ذلك العصر : عن موقفه من الكون وخوفه من المجهول ، فهي ليست مجرد وسيلة فنية يجذب بها الشاعر قلوب الناس واسماعهم اليه : بل كانت جزءا حيويا في تلك القصائد ان لم تكن اكثر اجزائها حيوية »(٢٤) .

(٢٣) العمدة ج ١ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (ط ٣ ، ١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٣م . مطبعة السعادة بمصر) : ٢٢٥ .
(٢٤) مجلة « الشعر » (عدد ٢ سنة ١٩٦٤ ، القاهرة) : ٣ ــ ١٤ .

وبجيئنا ابو نواس الشاعر بنماذج جديدة في بعض قصائده ومقطعاته ينعى فيها على هذا التقليد ، ويرى ما هو احب اليه من وصف الديار والربوع .

احب الي من وخد المطايا
بموماة يتيه بها الظليم
ومن نعت الديار ووصف ربع
تلوح به على القدم الرسوم
ورياض بالشقائق مونقات
تكتنف نبتها نوز عميم
ومجلس فتية طابوا وطابت
مجالسهم وطاب بها النعيم(٢٥)

فهو مشغول عنها لاناقة له فيها ولا جمل :

يا ربع شغلك اني عنك في شغل
لا ناقتي فيك لو تدري ولا جملي(٢٦)

ويجد حسيته اذ يخبرنا سبب هذا الانشغال ، وانه بما هو اشهى عنده :

شغلتني المدام والقصف عنها
وقراع الطنبور والاوتار
واستماعي الغناء من كل خود
ذات دل يطرفها السحار
فدعوني فذاك اشهى واحلى
من سؤال التراب والاحجار(٢٧)

ونراه يعرض بامرىء القيس وامثاله ، اذ يتهكم متظرفا على عادة « اولاد البلد » . فيقول :

قل لمن يبكي على رسم درس
واقفا ما ضر لو كان جلس
اترك الربع وسلمى جانبا
واصطبح كركية مثل القبس(٢٨)

وهو لا يكتفي بان يمنع نفسه من تلك الوقفة ، بل يسمعنا صدى صوته يتردد على معظم صفحات ديوانه داعيا غيره ان يفعل فعلته فيعرض عن تلك الربوع والرسوم ، ثم هو لا يبخل عليهم بالنصيحة يخلص في محضهم اياها ، فيدلهم على بديل افضل:

اعرض عن الربع ان مررت به
واشرب من الخمر انت اصفاها(٢٩)

(٢٥) الديوان : ١٨٧ .
(٢٦ــ٢٥) انظر الديوان ، الصفحات التالية على التوالي :

ويكثر من هذه الدعوة وتلك النصيحة ؛ من مثل قوله ايضا :

لا تعرج بدارس الاطلال
واسقنيها رقيقة السربال(٢٠)

وما ذلك الا ليقهر الهموم وتبديد الاموال :

وعد عن رسم وعن كثب
والله عنه بابنة العنب
خلقت لتهدم قاهرة
وعدو المال والنشب
لا تقنعا بالتي كرهت
فهي تابى دعوة النسب(٢١)

ولهذا ، فهو يلوم هؤلاء الذين يبكون وينوحون في الدمن على احبابهم ؛ وما الفائدة :

يا كثير النوح في الدمن
لا عليها ، بل على السكن
سنه العشاق واحدة
فاذا احببت فاسكتن(٢٢)

انهم جميعا اشقياء مجانين ؛ اما هو فيبكي على الخمر لان الدين يحرمها :

خل للاشقياء وصف الغباوي
واسقنيها سلافة بسلاف(٢٣)
عاج الشقي على رسم يسائله
وعجت اسأل عن خمارة البلد(٢٤)
لقد جن من يبكي على رسم منزل
ويندب اطلالا عفون بجرول
فان قيل ما يبكيك قال : حمامة
تنوح على فرخ باصوات معول
ولكنني ابكي على الراح ، انها
حرام علينا في الكتاب المنزل
سأشربها صرفا وان هي حرمت
فقد طالما وافيت غير محلل(٢٥)

وهذه النماذج قليل من كثير ؛ ونمشيا لاحصر لا يغض به الديوان من هذه الدعوة التي راى فيها بعض الدارسين اهانة لهذا التقليد وتلك السنة التي استنها لهم اسلافهم من قديم تراثا ضخما يجب الحفاظ عليه ؛ وعدوا الخروج عليه اهانة لاصحابه وغضا من مكانتهم ، وخاصة اذا كان الخروج بمثل هذا العنف الصريح من احد مواليهم ؛ ومن هنا عد بعض الدارسين ابا نواس متعصبا على هذه السنة ، فهو بالتالي متعصب على بادية العرب ؛ مهد حياتهم ومدارج اطفالهم ، فلابد من ان يكون لذلك كارها لاصحاب تلك البادية يسير في ركاب الشعوبيين ، ويحذو حذوهم ان لم يكن شعوبيا صرفا ؛ وان بعضهم الاخر مجددا في العرف الفني من هذه الناحية .

وعلى هذا ، فان ابا نواس لم يفجانا بهذه الدعوة مرة واحدة ؛ فان قبله سوابق في هذا الاتجاه تعد مكملة لا يمكن التغاضي عنها او التقليل من اهميتها . ففي بعض هذه السوابق ما يماثل هذا الخروج على تقليد عربي ، وهي سوابق تمتد عروقها مع نكون هذا التقليد وايام مبدعه الاول كما هو معروف ، بل وصدرت عنه بالذات : اليس معروفا ان الابل هي حيوان العرب الاول ؟ او ليس معروفا ايضا ان التقليد في المقدمة الطللية وقد مال الى ذكر رحلة الشاعر ، اقتضى ان يذكر فيها راحلته وهي ناقة او جمل دائما ؟ ان هذا شيء يكاد لا يخطئه الحصر . ولكننا نرى امرأ القيس لما كان ملكا يصف رحيله الى قيصر ملك الروم يذكر خيل البريد والفرانق -- يعني البريد -- بدل الناقة والجمل ، يقول :

اذا قلت رقحنها ارنّ فرانق
على جلعد واهي الاباجل ابترا
على كل مقصوص الذنابي معاود
بريد السرى بالليل من خيل بربرا
اذا زعته في جانبيه كليهما
مشى الهيدبى في دفه ثم فرفرا
اقب كسرحان الغضا متمطر
ترى الماء من اعطافه قد تحدرا(٣٦)

ونرى الفرزدق يقول واصفا رحيل امير راحت به البغال وقد عزل :

راحت بمسلمة البغال عشية
فارعي فزارة لا هناك المرتع(٣٧)

وقال ابن ميادة في ابن هبيرة لما كان اميرا ايضا :

---

٤٤٩ ، ٦٧٦ ، ١٢٤ ، ٦٨١ ، ٩٧ ، ٦٧٨ ، ٤١٢ ، ٦٧٩ ، ٦ ، ٦٧٩ .

(٣٦) انظر العمدة ج ١ : ٢٢٧ .
(٣٧) م . ن : ٢٢٧ .

جاءت به معتجرا ببرده
سفواء تردى بنسيج وحده
تقدح قيس كلها بزنده(٣٨)

الا يعد ذكر الخيل والبغال شيئا غريبا يقل نظيره في مقدمة القصيدة العربية التقليدية ، وخاصة في هذه الفترة المبكرة من تقليده ، خصوصا وان امرأ القيس ان لم يكن اول المقلدين لهذا الشعر ، فهو من اوائلهم على الاقل ، وجميعهم عـــرب اقحاح ـ ؟ ! ان الصدق اقتضى وصف الواقع ولا ضير .

ثم انني الح في البعيد كأن دخانا بلوح انفاسا دافئة متقطعة في جو رطب ، هي انفاس ذي الرمة يردد صدى نهي اخيه له عن البكاء على الديار :

عشية ســـعود يقول وقد جـرى
على لحيتي من واكف الدمع قاطـر
افي الدار تبكي ؛ اذ بكيت صبـــابة
وانت امرؤ قد حملتك المقـادر(٣٩)

ايمكننا اذن ان نتهم ذا الرمة او نخاه بانه يداخل احدهما او كليهما شيء من كراهة هذه الدور والربوع او اهلها ؟ ثم بماذا يمكننا ان نتهم عمرو بن كلثوم وقد آثر لمعلقته المشهورة في الجاهلية مقدمة خمرية مثل مقدمات ابي نواس :

الا هبـي بصحنك فاصبحينـــا
ولا تبقي خمـور الاندرينـــا

وينقل الاستاذ نجيب البهبيتي بيتين لمـن يدعوهم « اهل الصبوة »(٤٠) فيهما تصريح واضح بالغض من مكانة البيد المحيرة ، وتفضيل جلسات العشاق عليها :

لاحسن من بيد يحار بها القطـــا
ومن جبلي طيء ووصفكما سـلمى
تلاحظ عيني عاشـقين كلاهمـــا
له مقلة في وجه صاحبه ترعى(٤١)

(٣٨) م . ن : ٢٢٨ .
(٣٩) انظر نجيب بهبيتي ـ تاريخ الشعر العربي ـ ط ٢ ـ مؤسسة الخانجي ـ القاهرة ، (١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م) : ٢٩٢ .
(٤٠) طائفة من الفتيان المتحررين نشأت في الكوفة ، وكانت تكتم امرها بعض الكتمان ، وقد سبقت في وجودها ابا نواس الذي جاء شعره تعصبا لرأيها فيما بعد . انظر نجيب بهبيتي ـ المرجع السابق : ٢١٩ .
(٤١) م . ن : ٢٧١ .

ولقد ان نتعرض لما يمكن ان يقف وراء هذا الاتجاه النواسي ونحلله بجب الا ننسى مقدمات ابي نواس الطللية الكثيرة والرائعة ، نتمثل منها ما يحدد ملامح واضحة وبارزة في اثر « لا كراهة » البادية واهلها لديه ان كان في ذلك ما يتعلق بكراهة او لا كراهة . فقد جرى كثير من الشعراء على تقليد المقدمات الطللية المعروفة وابدع فيها ابما ابداع . ويعده النقاد اكثر شعراء عصره او المتقدمين عليه ذكرا للديار في مطالعه(٤٢) ، حتى ليحار فيها المرء ما يختار وما يترك . فاستمع اليه في مقدمة لاحدى مدائحه في آل الربيع :

لمن دمن ترداد حسن رسـوم
على طول ما اقوت وطيب نسـيم
تجافى البلـى منهن حتى كأنمـا
لبسن على الاقواء ثوب نعيـم
وما زال مدلولا على الربع عاشـق
حسـير لبانات طليح همـوم
الا حبذا عيسى الرجـاء ورجعـة
الى ذات مقـلاق الوشين سقيم(٤٣)

وهو وان يجلو هذه الدمن في صورة زاهيـة كأنها منطقة اتربة معتنى بها عناية كبيرة ، حتى ليخيل انها لا تزال آهلة عامرة ، الا اننا نراه في ثانية يسكنها السفر بعد ان نسفت معالمها انجم النحس :

اربع على الطلل الذي انتسـفت
عنه المعـالم انجم النحـس
واسـوطنته العفر قاطنـة
ولقـد يكـون موابع الانـس
لعبت بـه ريـح يمانيـة
وحواصب تركتـه كالطـرس
فلئن عفـا وعفت معالمـه
فلقـد خضعت ، وكنت ذا نفس
وحللت بعـد سـواي مقتصراً
لسبوح مرقبة على الشمس(٤٤)

واذا كنا نراه يحل نفسه هواه فيها مقتصرا على خمرته الا انه في بدايتها يهيب بنفسه او بصاحبه ان يربع على تلك الاطلال ، كأنه لم يكن هو نفسه

(٤٢) انظر ، ابو نواس ـ الحسن بن هانيء .. : ١٤٣ .
(٤٣) الديوان : ٤٤٧ .
(٤٤) الديوان : ٢١٥ .

الذي ينهى عن الوقوف عليها والبكاء فيها ؛ فهو ؛ في هذه المرة ؛ يطول به البكاء فيها حتى ليكاد يصيبه مس من الجنون :

لقد طال في رسم الديار بكائي
وقد طال ترادادي بها وعنائي
كأني مريغ في الديار طريدة
اراها امامي تارة وورائي
فلما بدالي اليأس عديت نافتي
عن الدار واستولى علي عزائي
الى بيت حان لا تهر كلا به
علي ؛ ولا ينكرن طول توائي(٤٥)

وماذا تريد اكثر اثارة من هذا التصوير الانساني لمبتلى يحاول نسيان حرقة الهجر والاشواق . انها مقدمة تنبض بالحيوية وتفيض بخصب الحياة الانسانية زاوج فيها بين دور الطلول ودور الخمور .

ويبلغ ابو نواس ذروة الأسى في تجسيده لحسرته على الديار وساكنيها ؛ اذ يقول في مخاطبتها :

يا دار ما فعلت بك الايام
ضامتك والايام ليس تضام
عرم الزمان على الذين عهدتهم
بك قاطنين وللزمان عرام
ايام لا اغشى لاهلك منزلا
الا مراقبة ، علي ظلام(٤٦)

ومنازل الاطلال تشجوه وتهيج هواه(الديوان: ٤٦٨) . وبرغم ذلك ؛ فهو يقدم لها التحية والاكبار (الديوان : ٥٠٠) من اجل من كان يقطن تلك المنازل :

الا حي اطلالا بسيحان فالعذب
الى برع ، فالبئر بئر ابي زغب
تمر بها عفر الظباء كانها
اخاديد من روم يقسمن في نهب
عليها من السرحاء ظل كأنه
هذاليل ليل غير منصرم النحب
تلاعب ابكار الغمام ، وتنتمي
الى كل زعلوق ، وخالفه صعب

منازل كانت من جذام وفرتنى
وتربيهما هند فابرحت من ترب(٤٧)

ومن اكثر شعره ذهوبا مذهب اهل البادية :

هل عرفت الربع اجلى
اهله عنه فزالا
بشروى قد عفا او
صار آلا وخيالا
جرت الريح عليهن
جنوبا وشمالا
رب ربع كان فيه
يملأ العين جمالا
ولقد تنصك الحو
ربها العين الغزالا
في ظباء يتزاور
ن فيمشين تغالا(٤٨)

ومعلقة الطللية كثيرة في ديوانه يخرج في بعضها الى ذكر خمره ودورها ومجالسه وذلك يوافق ما كان ذهب اليه المرحوم العقاد من رغبة ابي نواس في تفريج ازماته وعقده النفسية .

وصنعة الشعر لديه كانت تعتمد اعتمادا قويا على الاطار القديم في المديح والرثاء وما يشبههما ؛ فهو يتوفر في مديحه وشعره الرسمي ؛ ويقدم له بوصف الصحراء على طريقة القدماء ؛ بينما كانت قصائده تنفك من هذا الاطار احيانا في الغزل والخمريات(٤٩) .

فالدعوة الى بدء القصيدة بغير البكاء على الديار لم تكن كما رأينا بدعا ابدعه ابو نواس ؛ فقد جاء من سبقه الى ذلك او الى نوع مثله منذ ايام الجاهلية . ويرى الاستاذ عبدالحليم عباس ان طبقة بشار ورفاقه السابقة لطبقة ابي نواس قد جانبت الطريقة التقليدية دون ضوضاء او شغب ؛ ولكن النواسي آثر اجتنابها في ضوضاء وشغب ، وآثر ان يسلك الجانب الذي قلما يرتاده احد من الشعراء ؛ واذا ما ارتادوه فهم يحسبون الحساب كله لمقالة الناس وآرائهم وقد اراد النواسي طلبا للصدق ميل غير قليل الى حب الشهرة(٥٠) .

---

(٤٥) ، (٤٦) م . ن : ٤٠٢ ، ٤٠٧ .

(٤٧) م . ن : ٥١٠ .
(٤٨) الديوان : ٤٨٨ .
(٤٩) انظر شوقي ضيف ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي (ط ٧ ـ دار المعارف بمصر) : ١٦٢ ـ ١٦٤ .
(٥٠) ابو نواس : ٩٥ .

ويرى الاستاذ نجيب البهبيتي ان فن ابي‌نواس في هذا الباب انما هو الاوج الذي انتهى اليه تاريخ التطور به بعد مقدمات طويلة وخطوات متعاقبة اتكأ عليها ابو نواس ، وكانت طريقته اثرا من آثارها(٥١).

واذا اردنا الحق والموضوعية شعرنا بواجب النظر بعين الاهتمام والاعتبار الى الحياة الجديدة التي عاشها ابو نواس في عصر من ازهى عصور الدولة الاسلامية فكرا وعمرانا وحضارية مادية حسية للفرس فيها نصيب كبير ، فكنت ترى آثارها في كل انحاء بغداد وحتى في بلاط الخلافة نفسه ، وعاش ابو نواس هذه المباهج والمناعم كلها ؛ فلماذا نمنعه من وصفها ونريد منه ان يصف البادية وهو ابعد ما يكون عنها ؛ ثم ان مفهوم البادية كان قد تغير عند اهل المدينة فاصبح يعني الخراب واليباب ، وان اهلها اجلاف غلاظ ، اكلة ضباب ويرابيع ، وهناك ما يمكن ان يكون سببا في كراهة ابي نواس لبعض اهل البادية ، وهم طبقة المتكسبين باللغة في عصر جمعها ؛ الذين ادى الاهتمام بهم الى ان يفرقوا في الكذب والاغراب فيه طلبا للارتزاق ، فتولد من عملهم شعر وخرافات واكاذيب كثيرة لم تكن في ذوقها وصورتها ترضي عقل رجل متحضر يعبد اللذة كأبي نوس ، فترك ذلك في نفسه اثرا من الكراهة لهؤلاء الناس ؛ فكان كثير النصب بهم ؛ يجفو حياة البادية ، ويرى في حياة الحاضرة مثله . وهو واقعي يريد ان يذهب بالشعر مذهبا يصل بينه وبين الحياة التي يحياها في بيئته المتحضرة الناعمة المرفة في اللين والخصب ؛ وغلا بعض الدارسين في الحكم على ابي نواس وعدوه من هذه الناحية متعصبا على العرب ، اراد انقاص صور التعبير في الشعر العربي صورة مرنة مستجبة خصبة ، وعدوا ذلك خطوة الى قطع صلة الشعر بماضيه ، كما انه طعن على اصل اصحابه وتعيير لهم بانتسابهم الى الصحراء وحياتها(٥٢) .

كان الامين قد امره بوصف الطلول ، فقال :

دعاني الى وصف الطلول مسلط
تضيق ذراعي ان اجوز له امرا(٥٣)

ويرى المرحوم العقاد ان هوس لجاجته وراء هذا الاتجاه انما يريد به تحقير الاطلال واهلها ، وذلك ما رآه ـ كما يقول ـ الخليفة وخشي مغبته بين القبائل المتحفزة في تلك الآونة ، فنهاه عنه نهيا عن هجاء سياسي لا تحمد عقباه(٥٤) .

واعتقد انه ليس من الحكمة التسرع في اطلاق مثل هذا الحكم على ما جن خليع كابي نواس رأينا كل همه في الحياة ، طراز معيشته التي يحياها ، والمباهج التي ينغمر فيها واكثرها اعجمية ، وهو يذكر اهلها بالخير ، فخيل للبعض ان الرجل يمدح الفرس ويتماجم ، مع انه لم يردها اعجمية او عربية وانما ارادها حقا وصدقا كما يقول :

ليال اروح على ادهم
كميت واغدو على اشقر
خيول من الراح ما عريت
ليوم رهان ولم تضمر
ذخائر كسرى لأولاده
وغرس كرام بني الاصفر(٥٥)

فالمدح هنا لعيش الروم والفرس معا ، لا للفرس وحدهم ، ومهما يكن ، فانه من الظلم ان ينسى مزاج ابي نواس وحبه للخمر وحياته اللاهية الفاجرة لنتهمه في بساطة بالتماجم والشعوبية . ولم يجز ابن رشيق لنفسه ان يتهمه بالشعوبية ، فقال فيه « وهو شعوبي اللسان ، فما ادري ما وراء ذلك(٥٦) ، فاحب ان يكون حذرا في هذا الاتهام .

واذا اخذنا بتفسير عزالدين اسماعيل لمقطوعة النسيب في المقدمة الطللية ، فما هو الذي نراه غريبا في مقدمة ابي نواس الخمرية ؟ انه يمزج بين مظاهر الموت والحياة باستمرار ، ولكنه يعمق لون المظهر الحياتي فيها ويجعله يقطر مظهره باللذة تشبثا عنيفا منه بالحياة كما فهمها على عادة الحسيين التجريبيين وهروبا مضطربا من الموت الذي يبهت لون مظاهره عنده .

ومعروف انه كان يقول معظم شعره على السكر والعربدة بين الرياض وفي البساتين(٥٧) ، وواضح هذا في اشعاره الكثيرة وفي مقدماته ، فكيف نجيز لانفسنا ان ناخذ ماجنا سكران بمعيار يؤخذ به اهل الوعي والجديون ؟ ان في ذلك افتئاتا على القيم والمعايير ، يمكننا ان نؤاخذ ابا نواس على انحلاله الخلقي وعلى فجوره وباحيته ، ولكن من غير المجدي ،

---

(٥١) تاريخ الشعر العربي : ٤١٧ .
(٥٢) نجيب بهبيتي ـ تاريخ الشعر العربي : ٤٥٠ .
(٥٣) الديوان : ٢١ .
(٥٤) ابو نواس ، الحسن بن هانيء ... : ١٤٢ .
(٥٥) ديوانه : ٦٨٢ .
(٥٦) العمدة ج ١ : ٢٣٢ .
(٥٧) ابن منظور ـ اخبار ابي نواس : ٥٥ .

وليس من الواقعية في شيء ان نصدر عليه احكاما لاتليق باسمائه . وانما تليق باهل الجد والاتـــزان الاسوياء .

ونعيه على الاطلال ما هو بدعوة هادئة الـى التجديد كما يتراءى للوهلة الاولى ؛ والا فان مطالع قصائده الرسمية في بكائها تزيد على مطالع كثيرين من الشعراء من معاصـريه ومن المتقـدمين عليه . فتجنبه ذكرها وبكاءها في غزله وخمرياته لم يكـــن ايثارا لمذهب ؛ انما ليستطرد منها الى عقـــدته النفسية والى التنفيس عنها بالخمر كلما برمـت بمفاخر النسب . فمنادمته الخمر هي (الوجاهة) التي يسمو بها الشـاعر على النظراء ؛ وهي التـي تنفث فيه الزهو والفخار بديلا من زهو الســـادة الاصلاء(٥٨) . وكان المقام قد اسلم الادب مفتاحـــا لشخصية ابي نواس ، فيه مما يلائمها الشيء الكثير .

والمتنبي انكر هذا النسيب التقليدي في المقدمات عندما قال :

اذا كـان مـدح فالنسـيب المقـدم
اكـل فصيح قـال شـــعرا متيـم

وابن رشيق يذكر ان من الشعراء من لا يجعل لشعره بسطا من النسيب ، بل يتناول ما يـــريد مصافحة في قصيدة بتراء كالخطبة البتراء او القطعاء التي لا يبتدأ فيها بحمد الله عزوجل على عادتهم في الخطب(٥٩) . ولماذا نذهب بعيدا وهناك في القرآن الكريم سورة (التوبه) وحيدة في سور الذكر الحكيم تبدأ دون بسملة ؛ اليست مناسبتها السـبب في ذلك ؟ ! ولكل مقام مقال . وهذا ما يفسر لنا مطالع ابي نواس التقليدية منها والخمرية ، ثم هو لا يبعد كثيرا عن العمود التقليدي في هذه المقدمات الجديدة: فهو يدعو صحبه وندماءه للوقوف والربع ، ولكن على دور الخمر العامرة بدل دور الاطلال المهجورة . وللبكاء على الحانات والندامى والسقاة بدله على الدمن والرسوم والاحباب الذين ابعدتهم عصـــف الترحال : انه لم يستطع ان يتحرر من القيد التقليدي في منهج المقدمة ، وحتى ، فهو في كل مقدمـــاته الخمرية تقريبا يذكر ــ بالسلب ــ الرسوم والطلول ليقارنها في نشوة اللهو واللعب بحاناته الراقصـــة اكبارا لجلساته وتفاخرا بعربدته .

ولا يعد الاستاذ عبدالحليم عباس «شعوبيته»

(٥٨) ابو نواس ، الحسن بن هانيء ... : ١٤٤ .
(٥٩) العمدة ج ١ : ٢٣٢ .

الا تماجنا ، ويرى في قوله من قصيدة وصف بهـا الخمر :

واذا نعـت انـك شيء متبعـــــا
لم تخـل من زلـل ومن وهـــم(٦٠)

دليلا منطقيا على ان الشـاعر اقدر على وصف ما يراه من وصف الشيء الذي لم يره(٦١) .

ويرى الاستاذ نجيب بهبيتي انه اذا عطف الى مذهبه الجديد في وصف الخمر برد وغث ورخص شعره بالقياس الى سابقه(٦٢) .

وعلى كل حال ، فقد فشل ابو نواس في تثبيت مقدماته الخمرية تقليدا في الشعر من بعده ؛ وذلك للفرق الشاسع بين قطاع الناس المتأثرين بمثل خبرته بالخمر ومعرفته لها ، وبين قطاعاتهم التي تستقطبها العاطفة الحزينة شقاء في الحب وشركة انسانية في بؤس عاطفة الحب بلا وصال . ومن هنا لم يستطع ابو نواس نفسه ان يهجر هذا الباب في جميع قصائده فكان يعاوده مرغما . ومن هنا ايضا يجب علينا ان ننظر الى ما دعا اليه من شكلية لم تسد كما ننظر الى العمل يأتيه الماجنون . فكيف نتصور ان يعيش امرؤ ما بين الرياحين ومداعبة الاوتار والجواري وتجرع كؤوس الخمر ، وخاصة اذا كان شـــاعرا فنانا ، ضعيف الطبع كابي نواس ، ونطلب منه ان يترك كل هذا ويصور النؤي والجذم ، والرســـم والطلل . والناقة والجفاف ؟ ! انه غير مستطيع ذلك ؛ خاصة اذا ادركنا انه يصب نعيه على الربوع والبادية في غزله وخمرياته منسـاقا مع لهوه واغتباطه مما يجعل مستحيلا عليه ان ينقسم الى شخصيتين واحدة خشنة تجد ، واخرى رقيقة تلهو ، وما هو في وعيه ولا وعيه الا شخصية واحدة منعمة ، لا ازدواج فيها . وما هذه المواقف الا ما يهيؤه من منافذ للهرب بهذه الشخصية من واقعه التعـــس المرير ، فكان لابد ان يأتي من ابي نواس ما اتى منه .

واذا كنت انتهيت من هذه الشائبة التـــي التصقت بابي نواس الى هذا الحد ، فانني اود الانتقال الى دخل اخر ، ، وهو تمرنه لبعض مظاهر الحياة عند الاعراب ومظاهرها عند الفرس لنرى مقدار سطوة فكرة الشعوبية على نفسه وماهيتها لديه .

(٦٠) ديوانه : ٥٨ .
(٦١) ابو نواس : ٩٥ ــ ٩٦ .
(٦٢) تاريخ الشعر العربي : ٢٦٠ .

٢ ـ ماذا في حياة الأعراب والفرس ؟

« وهو شعوبي اللسان ، فما ادري ما وراء ذلك »
ابن رشيق

يقول الاستاذ احمد امين ان مما ساعد في تقوية حركة الشعوبية هو تعصب الخلفاء للاسلام اكثر مما تعصبوا للعروبة ؛ فحاربوا الزندقة ولم يحاربوا ـ في شدة ـ النزعة العجمية لان اكثرهم مولدون ؛ فراح كثير من الشعراء الاعاجم يفخرون بنسبهم ويعتزون بقوميتهم ، فافتتح ذلك بشار(٦٢) . . .

وكان ابو نواس من طبقة تلت طبقة بشار ، تتلمذ لاستاذ شعوبي : فكان يجلس الى ابي عبيدة معمر بن المثنى الفارسي الاصل الذي كان ، لشعوبيته ، يتعرض للعرب احيانا ويبسط القول في مثالبها .

وكثر لغو ابي نواس في ذكر بعض الامجاد الفارسية . وقارن بعض مظاهر حياتهم بمظاهر من حياة اعراب البادية ؛ مما حدا ببعض الدارسين الى ان يسجلوا عليه هذه الظواهر على علاتها ليدفعوه بها دليلا على سيره في ركاب تلك الحركة العنصرية ؛ وهو الذي عاش في عصر وسم بحب اللهو والمجون ، وفي بلد اكتظت بالعناصر العربية والعجمية ومعظمهم متهالك على اللذات ؛ وكان شاعرنا ، الفنان المربيد نموذجا يحتذى في السكر والعربدة حتى سمي بحق « شاعر الخمر » . نادم الخلفاء والامراء وغيرهم من فرس وعرب ، وكثيرا ما يذكر نداماه في مقطعات شعرية ؛ على العادة في مثل تلك الجلسات اذا وجد فيها شاعر او مغن . وله في ذكر بعضهم من العرب :

يا خليلي من بني مخزوم
عللاني بماء بنت الكروم(٦٤)

ونراه في جلسة ثانية يذكر بعض المداعبات معهم :

كيف اصبحت لا عدمت صباحاً
صالحاً يا محمد بن قريش
انس نفسي كيف استجزت اطراحي
فيم ذا ، بل علام ذا ، ام لايش(٦٥)

ومثل هذا في شعره كثير . ولكن يبدو ـ وكما هي العادة لدى معظم السكيرين ـ ان هؤلاء الندامى ـ على عادة العرب ـ كثيرا ما كانوا يتبارون في الافتخار بانسابهم وآبائهم عندما تفعل الخمر فعلها

(٦٢) ضحى الاسلام ج ١ : ٦٢ .
(٦٤) ديوانه : ١٧٥ . (٦٥) م . ن : ١٨١ .

في رؤوسهم . ولم يكن ذلك ليعجب ابا نواس بطبيعة الحال حيث لا يمكنه المباهاة بأسره او نسب امام هذه الانساب العربية العريقة ؛ ولهذا فهو يحث على التمسك باداب المنادمة :

فاذا خلوت بشربها في مجلس
فاكفف لسانك عن عيوب الناس
في الكأس مشغلة وفي لذاتها
فاجعل حديثك كله في الكاس
دع ذا التعاشر في مجانبة الاذى
وعلى اللبيب تخير الجلاس(٦٦)

وان للكأس حقوقا خمسة تجب مراعاتها :

وثالثها وان كنت ابن خير الـ
ـبرية محتدا ترك الفخار(٦٧)

ويظهر ان ذلك لم يكن ليردع بعض العرب عن عادتهم ، فكان ابو نواس يلاقي في منادمتهم مضايقة وكدرا :

واذا انادم عصبة عربية
بدرت الى ذكر الفخار تميم
زعمت الى قيس وعدت قوسها
سبيت تميم ، وجمعهم مهزوم(٦٨)

حتى كرة الاقامة ببغداد المدللة بحبها بسبب هذه العصبيات والخصومات ، نبجرها مدة بعيدا عن ذلك التنابذ والشقاق ؛ وهو في بعض شعره يبين اسباب هجرته تلك ؛ ويقارن بين حال العرب وحال الترك من الوحدة وقلة الخلاف ؛ مما جعله يحمدهم بالقياس الى العرب ، وما كان من الترك ولا ممن تعصب لهم ؛ ؛ وهذا واضح في قصيدته التي مطلعها :

فان سلمت وما قلبي بذي ثقة
من السلامة لم اسلم بيغداذا(٦٩)

الى هذا الحد وصل الكدر بما يريده ابو نواس لحياته اللاهية الهانئة . ومن اجل هذا ، وبرغم انه يذكر ان العرب هم اخلق الناس بالشراب كما سياتي يبدو في كثير من الاحيان انه كان يفضل على منادمة العرب منادمة الفرس ؛ فهم اهل خبرة بآداب الشراب ، وهو لسان حالهم اذ يقول :

لا تسقنها بالذي كرهت
فهي تأبى دعوة النسب(٧٠)

(٦٦) ديوانه : ٢٢١ ، انظر اخبار ابي نواس لابن منظور : ٢٠٨ .
(٦٧) اخبار ابي نواس : ٢٠٩ . (٦٩) م . ن : ٢٦ .
(٦٨) الديوان : ١٩٤ . (٧٠) م . ن : ٦٧٨ .

وفيهم حيث لا تنابذ ولا تفاخر يقول :

وبنو الاعاجم لا احاذر منهم
شراً ، فمنطق شربهم مذموم
لا يبذخون على النديم اذا انتشوا
ولهم اذا العرب اعتدت تسليم
متوقرين ، كلامهم ما بينهم
ومزمزمين ، خفاؤهم مفهوم
نادمتهم ارتاض في آدابهم
فالفرس غادي سكرهم محسوم(٧١)

هذا واذا عرفنا انه ما كان يجالس من العرب الا كبار رجالاتهم ، ادركنا الفرق في قيمة نفسه لديها في مجالسه مع العرب ومع الفرس ، وادركنا كذلك الخطأ الذي اوقع فيه عبدالرحمن صدقي نفسه دون مسوغ عندما عد ذلك على ابي نواس نزعة فارسية عنصرية(٧٢) . وابن هذه النزعة العنصرية وهو يصف اصحابها بالتذلل والتهيب ؟ !

ويظهر في بعض اشعار ابي نواس كثير من مظاهر تحقير الحياة البدوية الاعرابية في جوف الصحراء وفي وديانها الجديبة مقارنة الحضر وبحياته هو بالذات ، حياته العابثة التي ملكت عليه نفسه وابتاعت منه حتى كرامته وانسانيته ، يقول :

معاقرة المدام بوجه ظبي
حوى في الحسن غايات الرهان
اذا ما افتر قلت رفيف برق
واما اهتز قلت قضيب بان
الذ الي من عيش بواد
مع الاعراب مجدوب المكان
قصاري عيشهم اكل لضب
وشرب من حفير في شنان(٧٣)

ثم له في وصف البادية وعيبه حياة اهلها من الاعراب :

بلاد نبتها عشر وطلح
واكثر صيدها ضبع وذيب
ولا تأخذ من الاعراب لهواً
ولا عيشاً فعيشهم جديب
دع الالبان يشربها رجال
رقيق العيش بينهم غريب
اذا راب الحليب قيل عليه
ولا تخرج فما في ذاك حوب

فاطيب منه صافية شمول
يطوف بكاسها ساق اديب(٧٤)

ويبدو بوضوح تام من هذه النماذج انه لا يعيب حياة العرب كجنس ، فهو يدرك ان منهم الكثيرين من سكان المدن يشاركونه حياة اللهو والعبث ، وانهم ليسوا باقل منه طراداً في هذا الميدان ، ولكنه يعقد المقارنة بين الحياة المتحضرة الصاخبة التي يحياها مع امثاله من اعجام وعرب ، وبين حياة الاعراب ، بدو الفيافي والقفار ، وينعى عليهم تلك الحياة(البعل) التي يحيونها وقد خبرها بعض الوقت في بادية بني اسد منذ شبابه المبكر ، ويبين لهم السر في اقباله على حياته التي يعيشها (ريا) بالخمر ، القاسم المشترك في كل مقطعاته وقصائده .

وينقل له عبدالرحمن صدقي مقطوعة يذكر فيها بلدة متحضرة من الحواضر الفارسية التي لم يقطنها احد من الاعراب اذ يستبعد ذلك ، فهي تفوح بنسائم الريحان والورود ، يقول فيها وقد اختارها دهقان ليخبىء في احدى مغاراتها صهباءه منذ ازمان وازمان :

ببلدة لم تصل كلب بها طنباً
الى ضباء ولا عيس وذبيان
ليست لذهل ولا شيبانها وطناً
لكنها لبني الاحرار اوطان
ارض تبنى لها كسرى دساكره
فما بها من بني الرعناء انسان
وما بها من هشيم العرب عرفجة
ولا بها من غذاء العرب حطبان
لكن بها جلنار قد تفرعه
آس ، وكلله ورد وسوسان
فان تنسمت من ارواحها نسماً
يوماً تنسم في الخيشوم ريحان(٧٥)

ويتضح انه لا يصف هذه البلدة اعتباطاً ، فلربما كان يصف مجلس شراب له فيها ، كل حضوره من الفرس وقد ذهبت به النشوة حداً بعيداً : ونحن لا ننسى المضايقات الكثيرة التي كان يتعرض لها بسبب الخصومات العربية وتهاجيه مع بعضهم مما يضطره الى العنف في الرد جريا على ما درج عليه هجاؤه العرب من التنقيب عن المعايب والمبالغة فيها . على غرار قوله يهاجي تميميا :

فنحن ملكنا الارض شرقاً ومغرباً
وشيخك ماء في الترائب والصلب(٧٦)

(٧١) الديوان : ١٩٤ .
(٧٢) ابو نواس : ٥٧ .
(٧٣) الديوان : ١٠٢ .
(٧٤) م . ن : ١١ .
(٧٥) ، (٧٦) الديوان : ١٢٧ ، ٥١١ .

وعلى شاكلة قوله بعد ان يطلب من عاذلته الا تلومه على حياته العابثة الماجنة :

فهذا العيش لا خيم البوادي
وهذا العيش لا اللبن الحليب
فاين البدو من ايوان كسرى
واين من الميادين الزروب(٧٧)

وواضح ما الذي يريد ان يقوله في البيت الاول من تشبثه بحياته الرخية ، وواضح ما الذي يقصده في مقابل ـ اللبن الحليب ـ لدى الاعراب ؛ ويلاحظ الاستاذ عبدالحليم عباس على البيت الثاني انه « يشبه ان يكون جوابا عن حالة نفسية او اجتماعية اصطدم بها الشاعر ؛ فهو جواب على من يقول في معرض التبجح والفخر ـ نحن البدو ـ »(٧٨) وختام قصيدته التي منها هذان البيتان يدلنا على الروح التي يتكلم بها ، اذ يخاطب عاذلته :

غررت بتوبتي ولججت فيها
فشقي اليوم جيبك لا اتوب

وكل مفاخراته ومفاضلاته تدور حول ما يتصل بالشراب من مناقب الفرس ، وبعيش الحضارة في بغداد ؛ ولم يذكر للاعراب الا عيشهم النكد وصحراءهم المجدبة ، فلم يتعرض لمفاضلة عقلية او لمناقب اساسية بينهم ؛ ومع هذا ؛ فهو يفرق بين العرب سكان الحاضرة والاعراب سكان البادية ، وقد كان لا يضن على العرب بالمدح ، بل يراهم ـ على لسان الخمر ـ اخلق الناس بشربها ، وذلك عنده شرف كبير ومدح اي مدح . يقول محاوراً الخمر وعلى لسانها :

لا تمكنني من العربيد يشربني
ولا اللئيم الذي ان شمني قطبا
ولا المجوسي فان النار ربهم
ولا اليهود ولا من يعبد الصلبا
ولا لسنال الذي لا يستفيق ولا
غر الشباب ولا من يجهل الادبا
ولا الاراذل الا من يوقرني
من السقاة ؛ ولكن اسقني العربا(٧٩)

ويقول مثل ذلك ايضاً :

طربت الى خمر وقصف الدساكر
ومنزل دهقان بها غير داثر
بفتيان صدق من سراة ابن مالك
وازد عمان ذي العلا والمفاخر(٨٠)

(٧٧) م . ن : ١٢ .
(٧٨) ابو نواس : ١١٠ .
(٧٩) الديوان : ٩٢ .
(٨٠) م . ن : ٢٠٨ .

ولا نستبعد طبعا ان يكون مجلس الشرب هذا عربيا او عربي الطابع سكنت فيه شياطين العصبية ؛ وحيست عفاريت الفخر كما يلذ للشاعر وبطيب .

ومن المظاهر الاخرى التي يحاول بعض الدارسين النفاذ عن طريقها ليتهموه بالشعوبية ؛ وصفه كثيراً كؤوس شرابه وذكره الصور الاعجمية والكروية التي تحملها بمثل قوله :

تدار علينا الراح في عسجدية
حبتها بالوان التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها
مها تدريها بالقسي الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها
وللماء ما دارت عليه القلانس(٨١)

ويرد على هذا الاستاذ عبدالحليم عباس بان مثل هذا الاستشهاد على اعجميته يمثل سوء ظن به ؛ فلا يذكر لفظة « عجم » حتى يتهم بالعجمة ؛ والا فاي حرج عليه ان وصف كأسا على حقيقتها ؟ ويورد الجاحظ انه لم ير في هذه الابيات الا انها طراز فذ من التصوير لم يسبق اليه(٨٢) . ثم يرورد له اشعاراً يصف فيها كؤوسه ؛ فاذا صورها من الفوس ذوي الصلبان ؛ ولعلهم من الروم :

ملس وامثالها محفرة
صور فيها القسوس والصلب
يتلون انجيلهم وفوقهم
سماء خمر نجومها الحبب(٨٣)

وها هي ذي صورها مرة ثالثة رجال من الهند :

كان رجال الهند حول انائها
عكوف على خيل تدير متونها(٨٤)

وابن التماجم اذ يقول في هذا التصوير الجميل وفي فخره بحسن منادمته :

بنينا على كسرى سماء مدامه
مكللة حافاتها بنجوم
فلو رد في كسرى بن ساسان روحه
اذن لاصطفاني دون كل ندیم(٨٥)

وهل هو حقا يفضل هذا اليهودي الخمار الذي زاره مع صحبه ؛ على العرب ؛ حيث يقول :

(٨١) م . ن : ٣٧ .
(٨٢) ابو نواس : ١١٥ .
(٨٣) ، (٨٤) الديوان : ٥ ، ١٣٨ .
(٨٥) ديوانه : ٤٤٨ .

فقلنا له ما الاسم ؟ قال : « سموال
على انني اكنى بعمرو ولا عمرا
وما شرفتني كنية عربية
ولا اكسبتني لا ثناء ولا فخرا(٨٦)

ام انها معابثة خلقتها المناسبة يداعب بها خماره الحقير مهرجا امام صحبه من « فتيان صدق » ؟

ولما كان ما يبدو تعاجما من ابي نواس وزراية على عيش العرب اكثر ما يرد في خمرياته ؛ ولم يكن العرب اهل خمر كما كان الفرس ؛ فانها عنده تراث بني الاحرار كان كسرى ربيبها . يقول في هذا التراث :

تراثا عن اوائل اولينا
بني الاحرار اهل المكرمات(٨٧)

ثم عن خمار حط عليه اصحابه :

وابرز بكراً مزة الطعم ، قرقفا
صنيعة دهقان تراخى له العمر
فقال : « عروس كان كسرى ربيبها
معتقة ، من دونها الباب والستر »(٨٨)

ولما كانت الخمر اهم ما يطلبه في حياته ؛ يشربها معتقة اقدم ما تكون ، فانه لا يهمه هنا فخر بكسرى ام بعجم ام بغيرهم ؛ فالكل عنده لا يساوون امجاد قدمها :

فقلت لها يا خمركم لك حجة
فقالت : سكنت الان ردحاً من الدهر
سمعت بذي القرنين قبل خروجه
وادركت موسى قبل صاحبه الخضر(٨٩)

وجل همه ان يصور حياته الخاصة ؛ فلا يهمه الا التفاخر بها ؛ والا فاين التعاجم في عيبه على الاعراب وتعييره عشاقهم العذريين انهم يجهلون هوى الغلمان ، وعده ذلك من معايبهم :

اما والله لا اثر
حلفت به ولا بطرا
لو ان مرقشا حي
تعلق قلبه ذكرا(٩٠)

ولا ادري باي حق يحكم عليه بالشعوبية ، الا ان يكون ذلك تحاملا ورغبة صادقة في الصاق هذه التهمة به الصاقا ؛ اذا قال :

فاسقينها وغن سرو
تا ـ لك الخير ـ اعجما(٩١)

ان في مثل هذه الاستنتاجات عنتا وتعسفا يبلغ حد الحكر على ذوق شخصي لفنان كابي نواس ، وهذا لا يجر اليه الا حمل احكام مسبقة لا يراد لها ان تخضع للدرس العلمي والموضوعي .

ويبقى هناك حكر آخر يراد لابي نواس ان يخضع له وهو الا يتغنى باعياد خاصة ، لا لشيء الا لان الفرس يحتفلون بها ؛ والا كان سيف الشعوبية مصلتا فوق عنقه ؛ فاذا تغنى بعيد النيروز :

يباكرنا (النوروز) في غلس الدجى
بنوّر على الاغصان كالانجم الزهر(٩٢)

او قال في يوم آخر :

اسفنا ان يومنا (يوم رام)
ول (رام) فضل على الايام(٩٣)

عد الاستاذ عبدالرحمن صدقي ذلك من آثار الحركة الشعوبية ، واكثر من ذلك ؛ فاننا نرى الاستاذ محمد الغزالي ، محقق ديوانه ، يأخذ عليه استعمال بعض الالفاظ الفارسية ، وبعد ذلك مظهراً من مظاهر شعوبيته(٩٤) ، كانهما بذلك يريدان ايقاف اثر التداخل في العادات والحضارات واللغات ، هذا التداخل الذي لابد من ان يكون امرا طبيعيا ، لاسيما في ذلك العصر الذي آتى اكله فيه امتزاج حضارتي الفرس والعرب .

وهكذا يبدو ان من جنايات ابي نواس على نفسه ان رماه بعضهم بالتعصب على العرب واتهموه افكا وبهتاناً بالشعوبية .

ونترك هذا الدخل الذي حاول متهمو ابي نواس بالشعوبية ان ينفذوا منه الى تحقيق دعواهم ونتعرض لوجه ثالث نحاول ان نتبين ما فيه من خيوط يمكن ان يكون نسجها شعوبيا ، او ملامح سمتها عنصرية فارسية ، هذا الوجه هو هجاء ابي نواس ومديحه .

---

(٨٦) م . ن : ٦١ .
(٨٧) م . ن : ٢٠٩ .
(٨٨) م . ن : ١٠٠ .
(٨٩) ، (٩٠) م . ن : ٦٨٩ ـ ٦٩٠ ، ٥٥٧ .
(٩١) الديوان : ٨٠ .
(٩٢) م . ن : ٢٢٢ .
(٩٣) م . ن : ٦٩ .
(٩٤) الديوان ، هامش صفحة : ٦٧٢ .

٣ ـ ماذا في هجائه ومديحه ؟

معروف ان ابا نواس هجا ومدح فرسا وعربا ؛ ولو ذهبنا نتلمس في مديحه وهجائه ما يمكن ان يشتم فيه شعوبية او عنصرية اعجمية لصعب علينا ان نجد هذه الخالة وخاصة بمعناها السياسي الجنسي ؛ فهو يمدح ويهجو كما يمدح ويهجو شعراء العرب: لانحس بهجائه للعنصر العربي او بمديحه للعنصر الفارسي .

ومن امر هجائه قصيدته التي يفخر فيها بقحطان ويهجو نزارا وضبيعا وبني اسد على عادة شعراء العرب : فيذكر بعض مثالبهم ، ويقلل من شان مفاخرهم ، ويقال ان هذه القصيدة كلفته سجنا طويلا ايام الرشيد ، ولو عددناه فيها شعوبيا لكان احرى بنا ان نعد كل من هجا من شعراء العرب كارها لهذا الجنس ، وحتى فقد قصر هو عنهم في هذا المجال ، فاستمع اليه ما يقول في هذا الهجاء :

واهج نزارا وافر جلدتها
واهتك الستر عن مثالبها
اما تميم ففير داحضة
ما شلشل العبد في شواربها
اول مجد لها وآخره
إن ذكر المجد قوس حاجبها
وقيس عيلان لا اريد لها
من المخازي سوى محاربها
ولم تقف كلبها بنو اسد
عبيد عيرانه وراكبها
وما لبكر بن وائل عصم
الا بحمقائهم وكاذبها
وتغلب تندب الطلول ولم
تثار قتيلاً على ذنائبها
نيلت بادنى المهور اخمهم
قسراً ولم يدم انف خاطبها(٩٥)

واهم ما في هذا الهجاء انه ينشر ملاءته ، ويوزع سهامه على عدة قبائل ؛ وليس في ذلك ما يسوغ شعوبية او عنصرية ، والا فباقي معانيه لم يخرج بها على عادة الهجاء المتبعة ، بل ولم يستطع ان يرتفع الى مستوى كثير من شعراء هذا المضمار.

واذا عرفنا انه فخر بقحطان في مقدمة القصيدة هان علينا ما رأيناه من هجاء ، وادركنا الباعث عليه ، وادركنا كذلك سبب سجن الرشيد اياه خوفا من اثارة الفتن السياسية في بلد ارهقتها تلك الفتن والحزازات ؛ وهو يقول مفتخراً بقحطان:

فافخر بقحطان غير مكتئب
فحاتم الجود من منافبها
ولا ترى فارساً كفارسها
اذ زالت الهام عن منا كبها
عمرو وقيس والاشتران وزيد (م)
الخيل اسند لدى ملاعبها
بل مل الى الصيد من اشاعثها
والسادة الغر من مهالبها
والحي غسان والاولى اودعوا
والملك وحازوا عرنين ناصبها
وحمير تنطق الرجال بما اختار (م)
ت من الفضل في مراتبها

ثم هو يدعو لحب قريشي لاجل النبي صلى الله عليه وسلم :

احبب قريشا لحب احمدها
واعرف لها النجزل من مواهبها
ان قريشاً اذا هي انتسبت
كان لها الشطر من مناسبها(٩٦)

وهكذا يمضي في مديحه وفي هجائه ، لا يزيد على ان يذكر فضائل من يمدحهم ومفاخرهم ؛ ومعايب من يهجوهم ومثالبهم ، وكلها احداث واقعية تعرفها القبائل وقد سجلها التاريخ . وهو لا يضيف ولا يحرف فيها ؛ فها هو ذا يذكر في مدحه قحطان مفاخرا بمساعدتها (بهرام) ابن كسرى الفرس على معارضيه منهم الذين حاولوا انتزاع الملك منه :

وكان منا الضحاك يعبده الـ
خائل والوحش في مساربها
ودان ادوانه البرية من
معندها رغبة وراهبها
ونحن اذ فارس تدافع بهرام (م)
قسطنا على مرازبها(٩٧)

ويذكر كذلك نصرتهم الفرس على الروم مفاخرا :

ويوم سانيد ما ضر بنا بني (م)
الاصفر والموت في كتائبها
اذ لاذ برواز يوم ذاك بنا
والحرب تمري بكف حالبها
يذود عنه بنو قبيصة بالخطـ
والبيض من قوانبها
حتى دفعنا اليه مملكة
ينحسر الطرف عن مواكبها(٩٨)

(٩٥) الديوان : ٥٠٨ ـ ٥٠٩ .

(٩٦) ، (٩٧) ، (٩٨) الديوان : ٥٠٨ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

وفي قصيدة اخرى نراه يهاجي تميميا يبدو انه غاظه كثيرا ، وشدد عليه النكير لعجمته ؛ والا فلماذا هذه السخرية به ، وهذا الحنق عليه ، يقول :

اذا ما تميمي اتاك مفاخرا
فقل عد عن ذا ، كيف اكلك للضب
تفاخر ابناء الملوك سفاهة
وبولك يجري فوق ساقك والكعب
اذا ابتدر الناس الفعال فخذ عصا
ودعدع بمعزى يا ابن طالقة الذرب
فنحن ملكنا الارض شرقا ومغربا
وشيخك ماء في الترائب والصلب(٩٩)

وواضح ان كل ما يهجوه به انه اعرابي بدوي يرعى الغنم ويأكل الضب ، ويبول على كعبه ، ولا يمكن ان يفهم من ذلك كراهته لعنصر العرب وجنسهم واما فخره بملك الفرس القديم فيبدو من قوله « تفاخر ابناء الملوك سفاهة » انه رد على تحقير مزر له من بدوي جعله يستجمع نفثه لا يقدر هو على حملها ، فهو ليس من ابناء الملوك ، ولا حتى من اواسط الناس ، ومن يتتبع قصيدته هذه في الديوان يره يجري على عادة الهجاء العربي في ذكر المثالب والمعايب يعيره بها ويعيبها على قومه ولا شيء سوى ذلك ؛ فليس فيها ما يدل على شعوبية او تعصب لجنس على آخر . وكل ما فيها من المعاني العربية المطروقة التي يفيض بها هجاء القبائل بعضها بعضا .

وكثيرا ما كان ابو نواس يتعرض للوم بعض الناس وعبثهم بسبب سلوكه المنحرف وخلاعته الشاذة ، وكان هو لا يرضي منهم ذلك العتب ولا يحتمل هذا اللوم ؛ وربما تطورت الحال الى ما فيه شيء من الفضاضة والتحقير ، فيضطر ساعتها الى رد الهجوم ومناوشة الخصم . فهذا شخص يدعى ـ حمدان ـ يعتب عليه حبه الغلمان ، فيرد عليه الشاعر المنحرف :

حمدان مالك تغضب
علي في غير مغضب
يا فرع ليث بن بكر
ذوي الفعال المهذب
اهل السماحة والمجـ
ـد والمآثر ، واقلب(١٠٠)

(٩٩) م . ن : ٥١٠ .
(١٠٠) الديوان : ٧٢٤ .

وقد تهاجى شاعرنا مع كثيرين من الشعراء الذين يتعرضون للموالي بالسب والشتم ، ومنهم الفضل الرقاشي ، وفي هجاء ابي نواس له لا نحس الا بهجاء خاص يريد به تحقيره والتقليل من شأنه واكثر معانيه شمولا في هجائه :

والله لو كنت جريراً لما
كنت باهجى لك من اصلكا(١٠١)

لا يبدو الا انه سهم مهدف يريد به مهجوه وحسب ؛ على غرار الكثير من هذا الضرب في الشعر العربي ، فكل قبيلة تريد الحط من شأن القبيلة الاخرى لتسبقها في المجد . وها هو ذا يقول له ونية :

يا عربياً من صنعة السوق
وصنعة السوق ذات تشقيق
ما رايكم يا نزار في رجل
يدخل فيكم من خلق مخلوق ؟
ويحمل الوطب والعلاب ولا
يصلح الا لحمل ابريق
قد اخذ الله من رقاش على
تركهم المجد بالوائق(١٠٢)

فهو ، كما قلت سابقا ، يفرق بين العرب والاعراب ، وكل ما يهجوه به مما له اتصال بالجنس انه من الاعراب اهل البادية كما يهجو ابا خالد النميري ، يقول :

يا راكبا اقبل من ثهمد
كيف تركت الابل والشاء
وكيف خلفت لدى قعنب
حيث ترى التنوم والاء
جاء من البدو ابو خالد
ولم يزل بالمصر تنشاء(١٠٢)

ومثل هذا الهجاء يمكن ان يهجو به عربي حضري اعرابيا بدوياً دونما تحرج من مساس الجنس ، ودون ان يكون ذلك مبرراً لاتهامه بكراهة العنصر العربي .

ونرى ابا نواس يذكر بعض من يهاجونه بانهم ادعياء في العرب ؛ فيستكثر عليهم ذلك ، ويرى

(١٠١) م . ن : ٥٢٦ .
(١٠٢) م . ن : ٥٢٤ : .
(١٠٣) م . ن : ٥٦٨ .

عجيبا ان يرضاهم العرب فيهم ، فهو يقول في هجاء الهيثم بن عدي :

الحمد لله هذا اعجب العجب
الهيثم بن عدي صار في العرب
يا هثيم بن عدي لست للعرب
ولست من طيء الاعلى شغب
اذا نسبت عديا في بني تعل
فقدم الدال قبل العين في النسب(١٠٤)

ولو كان في نفسه شيء من كراهة العرب حقا ، لكان موقفه غير هذا الموقف . ويتردد مثل هذا في شعره وهو يهجو بعضهم . (انظر الديوان : ٥٤٤) .

وكما قلت ، فان معظم هجائه شخصي وعادي تماما . يتجلى ذلك في هجائه العباس بن الاشعث الخزاعي . اذ يرى ان بني الاشعث لن يكون في مقدورهم اصلاحه الا برده الى ربه يطبعه خلقا جديدا ، فهو لا يصلحه اللوم ، ثم يقول له :

وانما العباس في قومه
كالثوم بين الورد والآس(١٠٥)

فكيف يمكننا ان نقول ان في نفس الشاعر كراهة لجنس العرب وهو يريد هجو احدهم فيستله من قبيلته ويرى الفرصة في مدح قومه دونه ، وهو في هجائه الشخصي هذا لا يخرج ابدا على ما درج عليه شعراء العرب من ذم بالبخل والجبن ودنس العرض ، ثم لا ينسى ان يضرب المثل في وجود بعض الاعراب الذين هم مضرب الامثال في الكرم والجود ، يقول في هجاء بعضهم :

اظرف بقدرك لو لا انها غبرت
وما تطور بها نار ولا رسم
لو ان عرضك ذا في طهر قدرك ما
داناك في المجد لا كعب ولا هرم(١٠٦)

ومثل المعاني تتردد كثيرا في هجائه (الديوان : ٥٢٨ ، ٥٣٢ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧) .

واذا كان لنا ان نعجب فلهؤلاء الذين يستكثرون اهاجي ابي نواس عليه ، ولا يعجبون لهذا «الشعوبي» لديهم كيف يهجو آل برمك وعميدهم جعفرا في ايام سؤددهم ، وقد نقم عليه واقذع في هجائه وهجائهم ،

(١٠٤) الديوان : ٥٢٤ .
(١٠٥) م . ن : ٥٢٠ .
(١٠٦) ، (١٠٧) م . ن : ٥٦٢ ، ٥١٩ .

وكلنا نعرف هوى البرامكة في الزندقة واستئثارهم بالحكم لرغبتهم في ارجاع امجاد الفرس مما كان من اهم اسباب نكبتهم على يد الرشيد وادالة ايامهم ، يقول ابو نواس فيهم متمنيا سرعة هذا الدوال :

هذا زمان القرود فاخضع
وكن لهم سامعا مطيعا
كانهم قد اتى عليهم
ما قال يعقوب والربيعا(١٠٧)

ويقول في نجلهم :

فاذا اذنوا لوقت صلاة
كرروا « لا اله الا الرغيف »(١٠٨)

ويهجو جعفراً عميدهم ، فيقول فيه :

لقد غرني من جعفر حسن بابه
ولم ادر ان اللؤم حشو اهابه(١٠٩)

وهو يعجب للرشيد كيف رفع ذلك المخلوق الى مكانته العالية :

عجبت لهارون الامام ، وما الذي
يود ويرجو فيك يا خلقة السلق
ارى جعفراً يزداد نجلاً ودقة
اذا زاده الرحمن في سعة الرزق
ولو جاء غير البخل من عند جعفر
لما حسبته الناس الا من الحمق(١١٠)

وبرغم ان بعضهم يقولون بانه ترحم وعطف عليهم بعد نكبتهم(١١١) ، اذ عز عليه زوالهم ، الا اننا نراه كأنه يتشفى بهم وهو ينذر اسماعيل بن صبيح — كاتب سر الامين ، وكان من موالي الامويين — بمصيرهم ، يقول له هاجياً :

تجهز جهاز البرمكيين وانتظر
بقية ليل صبحه بك لاحق(١١٢)

ونحن في هذا التمثيل لا نود ان نغالي فنعدو باحكامنا تمثيل ابي نواس في شعره نزعة شخصية محضة ، يقوم انحراف حياته شاهدا حيا على تاثير هذه النزعة على تصرفاته وسلوكه حتى اضحى

(١٠٨) م . ن : ٥٥٥ .
(١٠٩) م . ن : الصفحة نفسها .
(١١٠) م . ن : ٥١٩ .
(١١١) م . ن هامش صفحة ٥٨٢ .
(١١٢) م . ن : ٥١٢ .

مضرب الامثال في المجون والاباحية والظرف ، فان كان في مقدور ابي نواس ان يمثل نزعة ما منضافة الى طبعه الشعيف وعقدته النرجسية ، فما تكون هذه النزعة الا النزعة الحضارية التي انغمس فيها ترفها ونعيمها .

ونحن وان كنا نرى فيما مثلنا من شعره في الهجاء دليلا على نفي « تهمة التاريخ » عنه ؛ اقوى مما يمكن ان يمثله شعره في المديح بحكم الموقف الحياتي للانسان المادح او الهاجي ؛ الا اننا نود ان نضيف الى هذه الشواهد ولادلة براهين اخرى من مديحه ، برغم اننا نراها كشافات صغيرة تستعمل في وضح النهار ، ولكن لنقارنها بمدائحه في بعض اهل عشيرته من الفرس والموالي ؛ واذا جاز لنا ان نستبعد الموقف الرسمي الذي يملي على الشاعر معاني المديح حتى لا يحكم عليها بالوقوع تحت تأثير هذا الموقف ، فاننا نرى البون شاسعا بين معانيه التي يمدح بها بعض العرب ومعانيه التي يمدح بها الاخرين . فجل مدائحه في رجالات العرب تدور حول عراقة اصولهم وطيب محتدهم وارومتهم ، فهو يقول في مدح الرشيد :

يابى لهارون الخلافة منصر
محض تمكن في المصاحي المعرق(١١٢)

ويمدح الامين فيقول :

لبست رداء الفخر في صلب آدم
فما تنتهي الا اليك المفاخر(١١٤)

وواضح ما في هذا المديح من تنويه بأصالة عرق العرب الجنسي ، ثم هو يمدح العباس بن عبيدالله فيجمع العرب من يمنييهم ومضرييهم على خط طويل من الكرم ، يقول :

وكريم الخال من يمن
وكريم العم من مضره(١١٥)

وفيه ايضا :

وانك للمنصور منصور هاشم
وما بعده من غاية لفخار(١١٦)

سادا طريق الفخار على غيرهم ، فهم ورثة المجد خلفا عن سلف حتى يصل نسبهم الى آدم حيث يقول في مدح ابراهيم بن عبيدالله :

قل لمن ساد ثم ساد ابوه
قبله ، ثم قبل ذلك جده
وابو جده فساد الى ان
يتلافى نزاره ومعده
ثم اباؤه الى المبتدى من
آدم لا اب وام تعده
عبدري اذا انتمى ، ابطحي
تالد نسجه ، عتيق فرنده(١١٧)

والتناقض الذي يبدو في مديحه نزارا هنا وفي هجائها فيما مر من شعره(١١٨) المتمثل به كافي الدلالة في الرد على متهمي ابي نواس بالشعوبية ، فهو لم يكن يهجو عن غل شعوبي او حقد عصبي ، فان همته لم ترتفع به الى هذا الحد من التفكير السياسي لنترك لهوها ومجونها ؛ ولو احتج هؤلاء بان مدائحه نتيجة مواقف معينة واعتبرناها كذلك مع هجائه ، وذهبنا الى ان جل هذا او كله كلام شاعر لكفى بذلك عدم قيام دليلهم على شعوبيته . ونحن من جانبنا لا نكلف انفسنا اثبات حب للعرب في نفسه اذ يعز ذلك ، انما نحاول ان نحقق مدى الصدق في ادعاء عجمته وشعوبيته ، فتتوارد علينا جل امثلة شعره ومواقفه تدعم خطل هذا الادعاء وتقوي فساده ؛ وهو دائم الذكر لانساب ممدوحيه من العرب ، وتسجيل تطاولها على الناس والزمان ، يقول في استذاره الى هاشم بن حديج بعد ان كان هجاه كثيرا :

اذا امتازت الاحساب يوماً باهلها
اناخ الى عادية وحميم(١١٩)

وله مدائح كثيرة في ذكر كرم العرب وشجاعتهم لا يهمنا ذكرها .

واذا ملنا جانبا نحو مدائحه في بعض الاعاجم رأينا معظمها يدور حول كرمهم واظهار مكانتهم في الدولة ، واتساع السلطان في ايديهم ، وتصريفهم لمطالب قصادهم . يقول في مدح الفضل بن يحيى البرمكي :

(١١٢) م . ن : ٤٠٠ .
(١١٤) الديوان : ٢٣ .
(١١٥) م . ن : ٣١ .
(١١٦) م . ن : ٣٦ .
(١١٧) م . ن : ٤٩٣ .
(١١٨) انظر هذا البحث ، صفحة : ٢٥ (المخطوط) .
(١١٩) الديوان : ٦٠٧ .

فيوم لالحاق الفقير بذي الغنى
ويوم رقاب بوكرت لحصاد
انالت عطاياه نزارا واشرفت
على حمير في دارها ومراد
فما هو الا الدهر ياتي بصرفه
على كل من يشقى به ويعادي
سلام على الدنيا اذا ما فقدتم
بني برمك من رائحين وغاد(١٢٠)

وكل مدائحه في آل برمك وآل الخادم وغيرهم تدور حول هذه المعاني ؛ الا اننا نجد له مديحا في عبدالوهاب بن ماياسان ، وهو من اشراف الفرس يقول فيه :

فرع تمكن من اروم عمارة
بقيت مناقبها على الايام
ان الملوك راوا اباك باعين
قد كحلت بمراود الاعظام
واستودعوا تيجانهم تمثاله
والله يعلمه مع الاقوام(١٢١)

فهذه الارومة محدودة بعشيرته ؛ ومناقبها الباقية لدى ابي نواس تاكل عليه ايامه ، وتلتهم منه اشعاره : تتمثل في تراث الفرس التليد لديه : خمر تفيض بها حانات بغداد ورياضها ، ومظاهر حضارية تغشي المدينة وتملأ على الشاعر عينيه وحياته ، وكلها ويتصل بظاهر الحياة وقشورها التي قضى الشاعر نحبه بعد ايامه فيها يوما بعد آخر .

واما تعظيمه لمكانة ابيه في الايام الخوالي ، فواضح انه يريد بذلك مكانته لدى ملوك الفرس ، اذ لم يكن العرب والمسلمون يسمون حكامهم ملوكا . وقارىء مدحته هذه يشعر ببرود عاطفته فيها ، فعلى الرغم من انه يشكره على وعده بتحقيق مهمة له ، ويطلب اليه ان يتم نتاج مواعيده ، فانه يبدو في مظاهر التعالي عليه بعض الشيء ، اذ يقول :

لما ندبتك للمهم اجبتني
ـ لبيك ـ واستعذبت ماء كلامي
فدع المواعيد التي الحقتها
حتى يكون نتاجها لتمام
فاذا بسطت يدا الي بفوثة
فلقد هززتك هزة الصمصام(١٢٢)

وهذا مما لم يكن ليرتفع الى مثله في ممدوحيه من العرب سواء في لهجة خطابه ام في الفاظه ومعانيه ام في مشاعره واحاسيسه التي يمكن استشفافها .

واذا ذهبنا مع الشاعر الى مصر ليمدح الخصيب فيها راينا كل ما يقوله في مدحه ـ بعد ذكر كرمه وسير الجود اينما حل وحيثما ارتحل ـ مما يتصل بنسب او عصب ان سلفه بدور :

له سلف في الاعجمين كانهم
اذا استؤذنوا يوم السلام بدور(١٢٣)

واين يقف مثل هذا المديح الصامت الى جانب حركة مدائحه عبر الازمان تنفخ الامجاد والفخار في اسلافه ممدوحية العرب واصولهم العريقة حتى تتصل بآدم جرثومة البشرية ؟ !

وتتضح بعد طول هذا العرض المعاني التي تطرق اليها ابو نواس في هجائه ومديحه ؛ ومعظمها ويدور حول مقارنات بين آثار الحضارة القائمة في بلده ؛ والتي يعيشها مع غيره من عرب وعجم ؛ ومعظمها فارسية الطابع ؛ وبين آثار حياة البداوة والصحراء . وهو في هجائه بعض القبائل لا يخرج كما راينا على نموذج الشعر العربي في هذا الباب ؛ فلا ضير فيه على عنصرهم ؛ ولا تحزب على جنسهم وحتى فاننا نراه ان ذكر الاجناس والانساب فهو يذكرها في مجال مديحه العرب مفخرة وامجادا ومكارم .

والمتفهم لنفسية الشاعر وبواعث اشعاره يضع يده على مفتاح شخصيته ، ويطل على ما في قلبه وعقله من امور الدنيا التي تهمه وتشغل باله ، وهي وكده في الحياة وكل شيء لديه .

وبانتهائنا من تفنيد هذا الدخل في تهمته نستاذن في عرض سريع لشائبة اخرى تمثل الصفحة اليمنى في وجه حياة شاعرنا يمكن ان نحقق مدى مساسها بقضيتنا عن طريق النصوص ؛ واستخارة الاخبار ، والاستئناس باراء الدارسين ؛ هذه الشائبة هي شائبة الزندقة التي تتداخل منافذها مع منافذ الشعوبية .

---

(١٢٠) الديوان : ٤٧٢ .
(١٢١) ، (١٢٢) م . ن : ٥٠١ .
(١٢٣) م . ن :: ٤٨٢ .

٤ ـ ماذا في زندقة ابي نواس ؟

« ربما كانت العداوة من جهة العصبية ، فان عامة من ارتاب بالاسلام انما جاءه ذلك من الشعوبية ، فاذا ابغض شيئا ابغض اهله .. »

ـ الجاحظ ـ

ليس هنا مجال البحث والتفصيل في حركة « الزندقة »(١٢٤) من حيث حياتها ومبادؤها وتعاليم اصحابها واخبارهم بقدر ما هو مجال الاجمال والعرض المستنفد لغايته ؛ فيكفي ان نعرف ان كلمة « زنديق » معربة عن اصطلاح فارسي كان يدل به اصحابه على من ينحرف بتاويل كتاب زرادشت « الافستا » عن ظاهر نصوصه ، فيعتبرونه ملحدا ثم اتسع مدلول اللفظ ليشمل في العصر العباسي اتباع « مزدك » وكل من آمن بدين من ديانات المجوس ولو اظهر الاسلام ، وكان ينضوي تحت لوائه في كثير من الاحيان الاباحيون من الفساق والمجان .

وكان الزنادقة من اشد الناس حفيظة على الاسلام وكل ما يتصل به من العرب والعروبة ، وعانت الدولة منهم الكثير حتى استحدث المهدي « ديوان الزنادقة » وامعن في تقتيلهم والتنقيب عنهم .

وقد عاش ابو نواس في عصر من عصور الشك التي تزاحمت فيها اقوال الفرق العديدة ، ومما يؤثر عنه انه كان على اتصال بهذه الحركة العقلية ، ولكن يبدو انه اعيته متابعتها ، فوقف عن البحث عند حدود التجربة المادية والمشاهدة الحسية ، يقول منكرا البعث :

يا ناظرا في الدين ما الامر
لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندي من جميع الذي
تذكر الا الموت والقبر(١٢٥)

وقد كان لسانه لفظا في التجديف ضد الدين وفي التطاول على العقائد بسبب ما هو فيه من فجور وفسق ؛ من مثل قوله :

(١٢٤) المزيد من المعرفة في هذا الموضوع ، انظر فجر الاسلام لاحمد امين صفحة ١٢٨ وضحى الاسلام ج ١ صفحة ١٢٧ ـ ١٦١ ، ومصادره في الموضوع .
(١٢٥) ابن منظور ـ اخبار ابي نواس : ٢٢٨ .

يا احمد المرتجى في كل نائبة
قم سيدي نعص جبار السموات(١٢٦)

ومن هنا كانت الفرصة مواتيه لكل مضطغن عليه موتور من هجائه كي يوغر عليه صدور الخلفاء والوزراء بالحق او بالباطل فيرميه باحدى موجبات الحدود ، اذ كان يشرب الخمر متهتكا . وقد مات الرشيد وهو في سجنه وسجنه الامين عدة مرات بسبب هذا التهتك: يذكر في اخباره انه صلى مرة وهو سكران ، ولما قرا الامام « قل يا ايها الكافرون » ؛ رد عليه ابو نواس من خلفه « لبيك » فلما قضيت الصلاة اندفع اليه المصلون ولببوه ، وانتهى امره الى ان دفع به الى حمدويه صاحب الزنادقة ، ولو لا علم حمدويه انه ما جن ، وليس هو بحيث نظن لكان قد قضى عليه (١٢٧) .

وتكثر اخباره في مثل هذه الحالات (ابن منظور : ٢٢٢) ، ولكن يذكر منها ايضا انه سجن مرة فلقي في السجن حماد عجرد المعروف بزندقته ، فقال في وصفه : « كنت اتوهم ان حماد عجرد انما يومى بالزندقة لمجونه في شعره حتى حبست في حبس الزنادقة ، فاذا حماد عجرد امام من ائمتهم ، واذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقراون به في صلاتهم »(١٢٨).

ونستشف من حديثه هذا ـ ان صح ـ استنكاره ونفوره حين ظهر له ان زندقة حماد عجرد حقيقية لا لهو . وكل دارسي ابي نواس ـ على الرغم من اختلافهم حول شعوبيته يتفقون على انه ما تزندق عن عقيدة ، وانما كان التزندق تماجنا وتظرفا على مثال اشباهه الذين يقول الشاعر ابن مناذر في احدهم :

لست بزنديق ولكنما
اردت ان توسم بالظرف

وهذا يتفق حقا مع ابي نواس في نفسيته وطبعه ، وفي مزاجه وحياته ؛ فحالته النفسية لم تكن لتساعده على زندقة مغرقة وكفر ، ولكنها تساعده على التظرف بالاستهانة بالفاظ الدين .

وينقل الاستاذ عبدالرحمن صدقي في كتابه ـ ابو نواس تشكك ابي العلاء المعري في رسالة

(١٢٦) ديوانه : ٢٥٠ .
(١٢٧) انظر ابن منظور ـ اخبار ابي نواس : ٢٢٤ .
(١٢٨) ابو الفرج الاصفهاني ـ الاغاني ج ١٤ : ٢٢٤ .

الغفران حول زندقة ابي نواس وعدم جزمه بذلك على الرغم من انه يذكر عنه ايضا رأياً بزندقته ، يقول ابو العلاء في رسالته « وذكر صاحب كتاب الورقة جماعة من الشعراء في طبقة ابي نواس ومن قبله ووصفهم بالزندقة . وسرائر الناس مغيبة وانما يعلم بها علام الغيوب(١٢٩) . وان صدق مثل هذا التحفظ في حقيقته ، الا انه من الصعوبة ان يصدق على ابى نواس الذي كان يحتفظ بكل سريرته على راس لسانه بريقها مع اباريق خمره ، ولو لا انه كان يعيش بهذا اللسان على نحو ما عاش لما كان اثار كل هذه الضجة حوله . وهو كما تثبت اخباره واشعاره يوصي غيره بالصمت وهو لا يصمت ، يقول :

مت بداء الصمت خير
لك من داء الكلام
انما السالم من الـ
جم فاه بلجام(١٣٠)

اما هو فلم يكن ليستطيع اخذ نفسه الآثمة بهذه الوصية ، فهي تنزع به دائما الى الخمر والى الاستهتار باللذات والافراط والمجون وطول اللسان. يقول الجاحظ « العقل اذا اكره عمي ومتى عمي الطبع جسا وغلظ واهمل ، حتى يألف الجهل ؛ لم يكد يفهم ما عليه وما له »(١٣١) .

فابو نواس كان يتعرض للقتل بجهده وهو مؤمن مصدق بقلبه ، وربما كان يتشكك ، ولكنه شك لا يخرج به الى الانكار . وقد جاء على لسان اصحابه ممن كانوا يعذلونه ويعيبون عليه مجونه روايات عدة كلها شاهد على ايمان الرجل وصحة اعتقاده . وكان يقول اذا اطالوا عليه توبيخه وتخويفه « والله اني لاعلم ما تقولون ، ولكن المجون يفرط علي وارجو ان اتوب فيرحمني الله عزوجل »(١٣٢) .

ونحن اذا تجاوزنا باب زهدياته في الديوان ، فاننا نرى في مديحه خيوطا تكون في مجموعها نسيج اعتقاد ديني في نفسه جعله يمدح بعضهم بالدفاع عن النبي ، ويعد ذلك خصالا مشرفة ، يقول في مدح ابراهيم بن عبدالله :

واخطرتم دون النبي نفوسكم
بضرب يزيل الهام عن كل مجثم(١٣٣)

ثم هو يستعظم قتل محمد بن ابي بكر في مصر ايام علي بن ابي طالب ، لا لشيء الا لانه صهر الرسول ، ويشبه قتلته بالجاهليين . يقول في هجاء هاشم بن حديج ايام كان يهجوه مذكراً اياهم بعذاب الآخرة :

يا هاشم بن حديج ليس فخركم
بقتل صهر رسول الله بالسدد
ادرجتم في اهاب العير جثته
فبئس ما قدمت ايديكم لغد
ان تقتلوا ابن ابى بكر فقد قتلت
منجراً بدارة ملحوب بنو اسد(١٣٤)

ثم تراه يعيرهم بذلك مرة ثانية ، ويتهمهم بعدم الايمان بالرسول :

وما كان ايمانكم بالرسول
سوى قتلكم صهره بعده(١٣٥)

وكل هذه المعاني والمشاعر المتعاطفة لا تصدر عن نفس خالية من الايمان ، بل لابد من ان يكون مترسبا في قعرها شيء منه ؛ فنراه يمدح عبيد بن الخادم ـ وهو من موالي الرشيد ـ بخوف الاله :

وخلطت خوفك للاله بخوفه
فعلمت ما تأتي وما تتجنب(١٣٦)

اما هو فقد جار طبعه على نفسه ودفعه الى حمأة الاثم والفسوق لا يتجبب منكراً ولا يرعوي عن غي وضلال ؛ فينسى خوف الله ، او بالاحرى لا يذكر الا رحمته وغفرانه الذي وسع كل شيء ، فراح ينتهب حياته ويجعلها خطايا مركبة طمعا في غفرانه تعالى :

تكثر ما استطعت من الخطايا
فانك قاصد رباً غفورا(١٣٧)

---

(١٢٩) ابو نواس : ٦٤ .
(١٣٠) ديوانه : ٦٢٠ .
(١٣١) الجاحظ ـ الحيوان ج ٦ ـ تحقيق عبدالسلام هارون (ط ٢ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م) : ٥٢ .
(١٣٢) منقولة عن عبدالرحمن صدقي ـ المرجع المذكور : ١٨٤
(١٣٣) الديوان : ٨٧ .
(١٣٤) ، (١٣٥) م . ن : ٥٥١ .
(١٣٦) م . ن : ٥٠٢ .
(١٣٧) م . ن : ٧٢٠ .

ومهما عظمت ذنوبه ، فانه يعلم يقيناً ان عفو الله اعظم ، ثم انه مسلم يبتهل الى ربه بهذه الابيات:

يا رب ان عظمت ذنوبي كثرة
فلقد علمت ان عفوك اعظم
ما لي اليك وسيلة الا الرجا
وجميل عفوك ثم اني مسلم(١٣٨)

ومن هنا ، ولما كان يرجيء امر حسابه الى الله في الاخرة راجيا عفوه ؛ طامعا في مغفرته اذ لا يرى ضررا لسيئة مهما جلت مع الايمان ، فقد راح بعض الدارسين يعدونه مرجئاً : يرى الاستاذ المرحوم العقاد ان ابا نواس تلقف آراء المرجئة وتهافت عليها ليجمع بين لهوه واعتقاده الايمان ، وطفق ينادي بانكار الشرك ولا يبالي ما عداه(١٣٩) ، فهو يقول :

ترى عندنا ما يسخط الله كله
من العمل المردي الغنى ما خلا الشركا(١٤٠)
ترى عندنا ما يكره الله كله
سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر(١٤١)

ومن ثم تشبث بان الكبائر لا تسلك صاحبها مع الكفار ، ولا تحرمه الرجاء في عفو الله ، فانفق حياته واثقا بعفوه لا يقصر عن اثم وفسوق ، يقول :

وثقت بعفو الله عن كل مسلم
فلست عن الصهباء ما عشت مقصرا(١٤٢)

وان صح هذا عن ابي نواس كان من غير المعقول ان يحشر مع زمرة الملاحدة من الزنادقة ؛ ففرقة المرجئة تعتبر من الفرق الاسلامية المبكرة في وجودها: ترى ان الايمان بالقلب وحده دون العمل : فلا تضر معه معصية ، ولا تنفع مع الشرك طاعة . فهم يرون جوهر الايمان في اعتقاد وجود الله ووحدانيته وعدم الشرك به ، واعتقد انه لا يمكن لاحد يدرس ابا نواس دراسة موضوعية ان يحكم عليه بالشرك واللادينية ؛ فهو مؤمن كثير الذنوب لا يني في كثير من قصائده ومجالس لهوه يشير الى اجوائها وعلاقتها الدينية بغير داعية من دواعي المقام ، ويسمي العقاد ذلك « قرشاً » بالدين والعبادة ينم عن عاطفة ليست من العداء وليست من الازدراء ، ولكنها شغلان يشوبه العبث ، واهتمام لا يقوى على الجد ولا على الترك والنسيان : فالتحرش لديه قبل كل شيء اهتمام(١٤٣) وينقل العقاد نصا يقول (نصح الامير ابو العباس محمد ابا نواس ان يتوب عن المجون . فقال له : اما المجون فما كل احد يقدر ان يمجن ، وانما المجون ظرف .. ولست ابعد فيه عن حد الادب او اتجاوز مقداره . اما المعاصي فاني واثق فيها بعفو الله عزوجل وقوله تعالى . فوالله لو ان السندي يقول ما قاله الله عزوجل لوثقت به ، فكيف بقول رب العالمين وهو يقول « يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا »(١٤٤) .

ويصح لنا ان نشك في جل اخبار ابي نواس ، فلربما وضع عليه منها اكثير سواء في اخبار عبثه ومجونه ام في اخبار تدينه ووجود بذرة الصلاح في قعر نفسه ؛ خصوصا وقد اصبح شخصية اسطورية تضاف اليها اخبار غيره واشعارهم في ميدان شهرته كما يحدث مع كل شخصية اسطورية في اي ميدان من ميادين الحياة : تطغى على ما عداها من الشخصيات المماثلة لها في مضمارها لقلة شانها جميعا بالنسبة اليها ، فتلتقف شهرتها كل اخبار تلك الشخصيات . ومن المعقول ايضا ان يكون بعض الناس قاموا ، مدفوعين بعامل الشفقة على هذه الشخصية الظريفة التي تملأ الكون بالاثم والعصيان، فوضعوا عنها اخبارا في التعلق الباطني بالله رحمة بالانسانية التي شوهها هذا المخلوق وشاب روحانيتها بأباحيته .

ومهما يكن من امر هذه الاخبار كلها صحة وانتحالا ، فلابد من ان يكون لها اساس ما ، وهذا ما تؤكده حياة ابي نواس واخباره واشعاره : مؤمن موحد ولكنه عاص فاسق لا يقوى على التفكير الجاد في زندقة او غير زندقة ، اذ هو دائب اللهو على ظهر تيار عارم من الخلاعة النشطة لا تبقي له ولا تذر شيئا من كرامة الانسان وشرف الحياة .

واذا كنا قد انتهينا الى هذا الحد من القول في زندقة ابي نواس وشعوبيته ، فلنحاول ان نتبين في فصل قصير مدى صدق احكامنا التي توصلنا اليها بمقارنة هذه الشخصية التي عرفنا معظم جوانبها مع شخصية شاعر عرف بزندقته وشعوبيته وقتل عليهما ، وهو بشار بن برد .

---

(١٣٨) الديوان : ٦١٨ .
(١٣٩) ابو نواس ، الحسن بن هانيء .. : ١٨٧ .
(١٤٠) الديوان : ٧٠٥ .
(١٤١) عن العقاد ـ ابو نواس ... : ١٨٧ .
(١٤٢) الديوان : ٦٨٢ .
(١٤٣) ابو نواس ... : ١٧٦ .
(١٤٤) عن المرجع السابق : ١٨٢ .

٥ ـ بين أبي نواس وبشار

اثر عن بشار انه كان شعوبيا زنديقا ، ويسوق الجاحظ(١٤٥) اسمه ضمن ثبت يحصي فيه الشعراء الذين عرفوا بزندقتهم ، ومعروف ان بشارا قتل ايام المهدي بسبب هذه الزندقة وتلك الشعوبية مع خلق كثيرين طاردهم موظفو ديوان الزنادقة الذي كان قد استحدثه المهدي لهذه الغاية وقد كثر شغبهم على الدولة .

واذا كنا قد اثبتنا هذه النتيجة في مقدمة هذا الفصل فلانه ليس من مهمتنا ان نحقق صدق الحكم فيها ، فان جميع دارسي بشار القدماء منهم والمحدثين متفقون على صدق هذا الحكم ، وبشار لايجد من يستطيع الدفاع عنه ، اذ ان حياته حجة قائمة عليه تدفعه وينعقد امامها اي لسان يحاول تبرئته من تهمته .

ونحن اذا استعرضنا نماذج عديدة من شعر ابي نواس راينا انه يمكن فيها ـ على الاقل ـ الاخذ والرد ، ويمكن فيها التعليل وادراك البواعث وتقديرها ، ولكننا اذا استعرضنا بعض اشعار بشار فاننا نستشف فيها جدية الشاعر الحسي المجسم ، ونشعر بلؤم القصد منها والاخلاص فيه ، فبعد ان كان بشار يفخر بولائه للقيسية في زمن الامويين نراه يركب موج العنصرية الفارسية الطامي بعد دوال دولة العرب الاموية ، فيبدأ بانكاره فكرة الولاء اصلا وينفي ان يكون هناك ولاء لاحد من العرب مهما سما بهم اصلهم ، يقول :

اصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم
مولى العرب فخذ بفضلك فافخر(١٤٦)

ولا يمكن ان يكون بشار قد سما بتفسير فكرة الولاء الى انه للاله الذي يعرفه المؤمنون ، ان هو قتل عدلا على الزندقة الالحادية وتفسير ذلك الولاء انه لا يخلو ان يكون مجرد سفسطة منه ، لان الولاء لله لا يوضع في الميزان مع نظام الولاء الذي كان يعرفه العرب ؛ فليس هناك مجال للموازنة ، لان كفتي الموازنة غير متعادلتين . ولذلك لا يستغرب ان يقصد بشار الى مهاجمة العرب واثارة الموالي الفرس ضدهم ، واين هو في هذا من ابي نواس حيث يقول في هجاء الفضل الرقاشي مبالغا في هجاء قومه :

وجدنا الفضل اكرم من رقاش
لان الفضل مولاه الرسول(١٤٧)

مشيرا بذلك الى قول الرسول (ص) : « انا مولى من لا مولى له » ؛ فهو يعترف بنظام الولاء الذي عرفه العرب ، ويستشهد له بآثار من السنة الشريفة .

ولا يقف بشار عند هذا وحسب ؛ وانما نراه نتيجة له ، يدخل نفسه من باب فسيح الى انساب فارسية ورومية عريضة يفاخر بها كل العرب في قحة حاقدة يعلو بها على انسابهم العريقة بلا مبالاة ، وهذا واضح في قصيدته التي مطلعها :

هل من رسول مخبر
عني جميع العرب(١٤٨)

ويصور بشار العرب في هذه القصيدة بدوا رعاة ، ويركز الضوء على جانب البداوة في حياتهم يجسمه في تحقير ساخط ، بينما يبرز الجانب الحضاري في حياة الفرس قمة شامخة في الترف والتمدين ، كانهم كلهم ملوك .

ثم يعقد فيها موازنة بين الدور التاريخي الذي قام به كل من الفرس والعرب ايام الانقلاب العباسي نرى فيها الفرس منتصرين يقيمون دولة يراها بديلا عن ملكهم القديم الدائر ، ونرى العرب منهزمين تضيع منهم دولة .

وهو يفخر فخرا عاليا بالفرس ؛ ولكنه يتستر على شعوبيته بان يذكر نصر قومه للعباسيين آل النبي صلى الله عليه وسلم . وكما بدا القصيدة بذلك الفخر العالي يختمها كذلك محاميا عن عصبيته

---

(١٤٥) الحيوان ج ٤ : ٤٨ .
(١٤٦) مقدمة ديوانه ج ١ (ط ٢ ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ، ١٣٧٨هـ ـ ١٩٦٧م) : ١٢ ، المقدمة بقلم محمد طاهر بن عاشور .
(١٤٧) الديوان : ٥٢٥ .
(١٤٨) ديوان بشار ج ١ : ٢٧٧ .

الفارسية ، وداعية للشعوبية الفارسية متخذا شعره وسيلة يهاجم بها العرب(١٤٩) .

وبقياس اشعار ابي نواس بمثل هذه القصيدة من اشعار بشار نلمس الفرق بين شعورهما بهذه العصبية ، حيث نرى بشارا في هذا العصر ماردا ـ ازرق العظم ـ ينفلت حاقدا من قمقمه الذي حشر فيه ايام الامويين ؛ ويشعر بحرارة الدم الفارسي يغذي عروقه بغزارة ويهيج اعصابه في عنف ، بينما نرى ابا نواس امامه شخصا قميئا ، رقيق النفس ، بشوشا ، ساخرا ، منهكما لا يصحو لنفسه ، ولا يدري ما يلفت عن لسانه ؛ اذ هو يدير اقداحه طالبا من جلسائه ان يقصروا حديثهم عليها ، وان يراعوا حقوقها التي منها عدم التفاخر بالانساب :

وثالثتها وان كنت ابن خير الـ
ـعربة محتداً ، ترك الفخار

وعلى هذا النمط او قريبا منه تسير اشعار كل منهما : فيبدو خط سير ابي نواس في وصف مظاهر الحضارة الجديدة ، ثم هو يفرق بين العرب والاعراب ، بينما يجعل بشار كل العرب اعرابا جفاة وبدوا رعاة ، ثم هو يفاخر صراحة بامجاد الفرس الدائلة ، اذ هو لا يستطيع ان يرى آثار الحضارة راي العين فهو اعمى لا يبصر ، وانما يبرز ما يسمعه عنها ويحسه منها .

واذا تكلمنا على زندقة بشار نرى اخباره تفيض بذكرها ، وبانه عاش حياته مخلطا مضطربا في عقيدته الدينية ، وقد اتصل في اول امره بالمعتزلة ثم فسدت صلته بواصل بن عطاء لما راى فيه زيغا عن صراط التفكير المستقيم ، وانحرافا عن الدين الحنيف . وعلى الرغم من ان ما وصلنا من شعر الزندقة قليل لتحرج الرواة من راويته ، ولقلة وصول هذا الشعر الى مسامع الناس في ايامه ، اذ كان يقال معظمه في مجالس مغلقة على اصحابها ؛ على الرغم من هذا وذاك ، فان ابا العلاء المعري يروي لبشار قوله :

ابليس افضل من ابيكم آدم
فتنبهوا يا معشر الفجار
نار عنصره وآدم طينة
والطين لا يسمو سمو النار(١٥٠)

وواضح ما في البيتين من تهجم على الاسلام والمسلمين ، ثم انه يفضل ابليس على آدم اذ انه مخلوق من النار ، اشارة الى قوله في القرآن الكريم اذ رفض السجود لآدم « انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » ؛ وواضح ايضا اتصال فكرته التي يفضل النار فيها على الطين بما لدى الثنويه والديانات المجوسية من تقديس للنار ومن عبادتها ، واين قوله هذا في ابليس من قول ابي نواس :

لم يرض ابليس اللعين فعالنا
حتى اعان فسادنا بفساد(١٥١)

ويروي الجاحظ لبشار قوله :

الارض مظلمة والنار مشرقة
والنار معبودة مذ كانت النار(١٥٢)

مشيرا بذلك الى اعتقاد الفرس من اصحاب زرادشت بان للعالم الهين : الها للنور هو الخير ، والها للظلمة هو الشر ، وهو مذهب الثنوية الذي يقال ان بشاراً كان يؤمن به .

وهكذا يقف بشار متطاولا في زندقته امام ابي نواس الذي تعد زندقته تظرفا ، واستهتارا بقيم المجتمع الخلقية ، زندقة حضارية لا صلة لها بالعقائد الايمانية واصول الدين ، وقد فهم فيه الحكام والمسؤولون عن ديوان الزنادقة ذلك ، فكانوا يسجنونه على هذا الاساس ردعا له عن تهتكه واباحته ثم لا يلبثون ان يطلقوا سراحه .

وهكذا نرى من هذه الدراسة المتواضعة انه من الصعب علينا ان نجرؤ فنحكم على ابي نواس بشعوبية عنصرية سياسية او بزندقة الحادية ، اذ حكمنا عليه بالفسق والفجور والعبث الماجن يقطع علينا الطريق الى ذلك ويحول دونه .. والله اعلم .

---

(١٤٩) م . ن : ٢٧٧ ـ ٢٧٩ .

(١٥٠) انظر مقدمة ديوان بشار : ٢٤ .
(١٥١) ديوان ابي نواس : ٧٨ .
(١٥٢) انظر مقدمة ديوان بشار : ٢٤ .

خلاصة مجملة

عرفنا ابا نواس في هذه الدراسة شخصا ماجنا كغيره من الكثيرين من ابناء عصره وقد طار صيته دونهم فكانما كتب القدر عليه ان يصبح ضريبة المجون في عصر كان بدعة في العصور : عصر ترف ورخاء ، خاصة لمثل هذه الطبقات التي تحيا حياة البذخ والنعيم .

وقد توفرت للحسن بن هانيء كل العوامل في شخصه وفي بيئته وفي عصره لتجعل منه ابا نواس او بالاحرى « ابو النواس » المعروف لدى العامة خورة مجسمة لظروف الانحلال في هذا العصر . وبرغم انتهاب ابي نواس لجميع لذائذ عصره ، فقد كان مؤرقا اشد ما يكون الارق بسبب وضاعة نسبه من جميع اطرافه وجهاته في عصر للانساب فيه اهمية كبرى ، فانطلق الشاعر « الوضيع » يتهرب من ارقه بحسو اقداح الخمور مع عصابات الخلعاء والمجان ، وعكف على الانشغال بوصف مجالسهم بين الرياض والبساتين عائبا وصف الطلول والربوع التي هي ابعد ما تكون عن حياته في بغداد ، وراح يصور حياة اللهو ومظاهر الحضارة التي تغرق فيها بغداد ويقارنها بحياة الجفاف والخشونة في البوادي والصحارى ، ليجد لنفسه منفذ فخر في حياته اللاهية ، وكانت مظاهر تلك الحضارة فارسية الطابع والسمات ، فمضى يكبر اصحابها ويسجل لهم هذا الفضل الحضاري ؛ فتلقف بعض الدارسين ذلك ورأحوا يدفعونه ، خطأ ، بتهمة الشعوبية وكره العنصر العربي ، وهو اقل من ان يرتفع الى مثل هذا المستوى . وكيف يحقر العرب وهو يستشعر غضاضة نسبه الفارسي ، فراح يطلب ولاء العرب ويتنقل فيه حيثما طاب له ؟ وكيف يكره العرب ويصغر شانهم وهو يلهج بعراقة اصول ممدوحيه منهم حتى يصل بها الى آدم ؟ وهو في هجائه بعضهم لم يسبهم كجنس ، ولم يحقرهم كعنصر .

وعقدة ابي نواس انه يشعر بحقارة نسبه ، ويريد ان يظهر بمظهر المتعالي عن هذه العصبيات . فيرى الحياة بمقدار الاستمتاع واللهو ، وكان لسانه يلفظ كثيرا بما لا يقصد ، مما حدا بابن رشيق ان يصفه بشعوبية اللسان وحسب ، غير مجيز لنفسه اكثر من ذلك ؛ وايضا ، فقد فهمه حكام عصره على حقيقته ، فكانوا يحبسونه على خلاعته واباحيته ليردوا عليه حريته بعد ذلك ، وقد كان في مقدورهم وقف ذلك اللسان لو راوا فيه جدية في زندقة او شعوبية .

ولكل هذه الاسباب كان من الصعوبة ان يتهم ابو نواس بشعوبية عنصرية سياسية بمدلولها المفهوم في عصره ، فهو شخص لا يريدها عصبية فارسية ولا عربية ؛ حيث هو خاسر في كلتيهما ، وانما يريدها لهواً وخلاعة كما عاش ، لا يرعوي عن فساد او فجور ، ماجنا اباحيا بلا مبالاة .

الى هذا الحد قادتني آثار الدرس والله الملهم للسداد ؛ وهو من وراء القصد .